ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة لابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) .

اعداد /.د قاسم عبد سعدون الحسيني

المقدمة

تُعد الكتابة في التاريخ الاجتماعي للأندلس من أمتع مجالات الدراسات الأندلسية ، ذلك أنها تكشف عن منظومة اجتماعية كانت ملتقى لحضارات وثقافات واثنيات متعددة تناغمت في إطار واحد يكمل بعضها الآخر لترسم معالم الحضارة الأندلسية في لوحة فريدة في باباها، على أنَّ الكتابة في التاريخ الاجتماعي بصورة عامة والتاريخ الأندلسي بصورة خاصة مهمة تكتنفها صعوبة قلة المعلومات، أو ندرتها فالتاريخ السياسي هو ما حاول المؤرخون رصدهِ وتقصي أحداثهِ ، فهو تاريخ الحكام والنخب السياسية والدينية والمعارك وقيام الدول وسقوطها ، وغير ذلك مما كان ملئ السمع والبصر عبر التاريخ ، أما تاريخ العامة وتفاصيل حياتهم اليومية فقد بقي يدور في فلك السياسة ويتوارى خلف شخوصها ، ولا يأتِ الحديث عنهُ إلا عرضاً في إطار التاريخ السياسي . يبرز كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي كمصدر مهم من مصادر التاريخ الاجتماعي للأندلس إبان عصر الخلافة الأموية وبداية عصر الفتنة البربرية (٣١٦-٣٩٩هـ/ ٩٢٨-١٠٠٠م)، ومما يزيد من أهمية الكتاب أنّ مؤلفهِ يتحدث عن أحداثٍ عاشها وشهدها بنفسهِ ، فهو شاهد عيان لما ينقل من أحداث ، كان أميناً في نقلها دقيقاً في تصويرها ، وأنَّ البحث الذي بين أيدينا يحاول رصد أهم الإشارات الاجتماعية والحضارية التي تضمنها كتاب طوق الحمامة لفهم جوانب من التاريخ الاجتماعي في الأندلس ، وقد اعتمد الباحث المنهج التحليلي في معالجة النصوص ، ومحاولة استنطاقها من أجل الوصول إلى رؤية واضحة حول الروايات الواردة في كتاب الطوق ، بعد ربطها وتكميلها بروايات وردت في مصادر أندلسية أخرى ، وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ، تناول المبحث الأول حياة المؤلف وعصرهِ وما عاشتهُ الأندلس في تلك الفترة من أحداث سياسية عصيبة شكلت انعطافة كبيرة في تاريخ الأندلس ، أما المبحث الثاني فقد تناول أهم الملامح الاجتماعية في كتاب طوق الحمامة والتي تعُد رواياته روايات ثمينة قد لا نجد مثيلاً لها إلا في هذا الكتاب ، أما المبحث الثالث فقد ركز على رصد أهم الروايات التي تخص الجوانب الحضارية عند ابن حزم ، ومحاولة تكوين صورة عن مدينة قرطبة ، وأهم معالم تخطيطها العمراني في نهاية عصر الخلافة الأموية في الأندلس ، وما حلَّ بها من دمار وخراب أثرَ الفتنة البربرية التي عصفت بالبلاد ونكبتها .

المبحث الأول

ابن حزم الأندلسي : عصرهُ .

يُعد عصر الخليفة الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م)[١]، امتداداً لعصر والدهِ الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) [٢]، فعلى الصعيد السياسي والعسكري تراجعت حركة الاسترداد الاسبانية[٣] تراجعاً كبيراً ، واتخذ النصارى موقف الدفاع بدلاً من الهجوم واكتفوا بالحفاظ على ما بأيديهم من الأراضي ، وعبثاً حاولت الممالك النصرانية التحالف فيما بينها للاعتداء على حدود الدولة الإسلامية والتمرد على الاتفاقيات المعقودة بين الطرفين فكانت تلك السياسة العدائية من قبل الممالك النصرانية فرصة لتأديبها ، وإعادة التوازن إلى العلاقات بين الطرفين والتي حدد مسارها التفوق العسكري بين طرفي النزاع[٤] .

---

[١] الحكم المستنصر : هو الحكم بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الأموي كنيته أبو المطرف أو أبو العاص لقبه المستنصر بالله وقيل ان الخليفة الناصر هو الذي لقبه بهذا اللقب منذ صغره . ولد في الرابع والعشرين من شهر جمادي الاخرة سنة ٣٠٢هـ/التاسع من كانون الثاني سنة ٩٢٤م . ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا)، ١٠١/٥؛ الحميدي،جذوة المقتبس ،ص١٣-١٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص٣٥٨ ؛ أبو الفداء، المختصر، ١١٧/٢؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص١٤؛ مجهول، تاريخ عبد الرحمن الناصر ، ص٣٢ .

[٢] عبد الرحمن الناصر : هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي ويلقب بالناصر لدين الله ويكنى بابي المطرف كما يلقب بعبد الرحمن الثالث تمييزاً له من سلفيه عبد الرحمن الأول (الداخل) وعبد الرحمن الثاني (الاوسط). ولد في سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩١م ونشأ في بلاط الإمارة وبرعاية جده الأمير عبد الله.ينظر : ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس١/٧، ابن الابار ، الحلة السيراء، ١٩٧/١، الذهبي، تاريخ الإسلام ، ص٣٥٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، ص٢٨.

[٣] حركة الاسترداد الاسبانية : وهي تسمية أطلقها المؤرخون الأسبان في وصفهم للفترة الوطنية والقومية التي دافع فيها الأسبان عن وجودهم، وأراضيهم ضد الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومن نافلة القول أن هذا المصطلح لا يرد في المصادر العربية بتاتاً، ولا نعثر على ما يقابله أو يقوم مقامه، أو يشابهه في دلالاته ، علماً أنها كانت مشروعاً مشتركاً بين مكونات المجتمع الأسباني ، تمخض عنه نضالاً ساهم في ولادة اسبانيا الجديدة ، بعد أن خاض رواد هذه الحركة حروباً مقدسة بالنسبة لهم سعوا من خلالها الدفاع عن سلامة ، وأراضي اسبانيا وتخليصها من سلطان المسلمين.وحول مفهوم هذهِ الحركة ينظر : مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٣١٠ .

[٤] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢٣٥/٢-٢٣٦ ؛ السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص١٨٤ .

لم يقتصر فرض هيبة المسلمين في الأندلس على مناطق الشمال النصراني ، بل توسع إطار نفوذها إلى بلاد المغرب فكانت المدن الساحلية لشواطئ المغرب ضمن ممتلكات دولة المسلمين في الأندلس وهي سياسة حرص عليها الخلفاء الأمويون دائماً[١] .

أما على صعيد الحياة الاجتماعية والثقافية ، فأن الأندلس خطت خطوات واسعة وسريعة إذ أصبحت قرطبة *Cordova*[٢] عاصمة للثقافة والعلوم والآداب وسعى الخليفة الحكم المستنصر جاهداً لمنافسة البلاط العباسي باستقطاب شخصيات علمية وأدبية كان لها وزنها من الأندلسيين والمشارقة حرصاً منهُ على بلورة الشخصية الثقافية الأندلسية ، والتأكيد على عمق الإضافة والتجديد الذي أضفتهُ على أصولها المشرقية مما منحها استقلاليتها وهويتها الأندلسية[٣] ، وقد كان الحكم المستنصر منذُ أيام أبيه الناصر منصرفاً للعناية بالعلوم وجمع المصنفات الغربية في العلوم القديمة والحديثة وقد جمعها منذ أيام أبيهِ ، ثم مدة ملكه من بعدهِ ، وصار يضاهي ما جمعتهُ خلفاء بني العباس ، فأزدهر العلم وتطور الأدب في مجالاتهِ المختلفة[٤] . وقد حفلَ بلاطهِ بشخصيات علمية تركت بصمتها في تاريخ العلوم في الأندلس في اختصاصات علمية مختلفة أشار ابن صاعد الأندلسي إلى أشهرهم[٥] ، كما ذكرت المصادر الأندلسية الأخرى كثيراً منهم في مجالات العلوم الدينية واللغوية والعقلية[٦] .

بدأ المجتمع الأندلسي في هذهِ الفترة أكثر ترفاً وتساهلاً في الحدود الدينية – على الرغم من تشدد الفقهاء المالكيين– إذ امتزجت عناصرهِ امتزاجاً ذابت أو كادت تذوب فيهِ الفوارق العرقية ، إذ كان الزواج بين المسلمين وغيرهم من المستعربين[٧] ، واحداً من أهم عوامل ذلك الامتزاج ، وأدى ارتفاع نسبة الدخل وزيادة الموارد الاقتصادية للدولة إلى تحسين مستوى المعيشة في المجتمع ، وأن بدت طبقة

---

[١] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢٤٢/٢ومابعدها ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٨٧ ؛ مؤنس ، معالم تاريخ المغرب ، ص٣٨٥ .

[٢] قرطبة : قاعدة بالأندلس وأهم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها ، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر . ينظر: الحموي ، معجم البلدان ، ٧/ ٥٣-٥٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤٥٦ .

[٣] المقري ، نفح الطيب ، ١١١/٣ ؛ مؤنس ، معالم تاريخ المغرب ، ص٣٨١-٣٨٥ .

[٤] ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص٨٧ .

[٥] طبقات الأمم ، ص٨٩ ومابعدها .

[٦] ابن بسام ، الذخيرة ، ١٤/١-١٥، ٣٠ ، ٧٢ ، ١٢٨ ؛ ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ص٤٨٢ ومابعدها ، بالنثيا ، تاريخ الفكر ، ص٨١-٨٦ ، ٢٣٩ ، ٣١٣ ، ٣٥٣.

[٧] المستعربين : هم سكان اسبانيا الأصليين من النصارى واليهود الذين بقوا على ديانتهم ولم يعتنقوا الإسلام وعاشوا في ظل الحكم الإسلامي ، وتبنوا جميع العادات والتقاليد الإسلامية وتكلموا اللغة العربية وتسموا بأسماء عربية . ينظر : مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٣١٥ومابعدا .

الارستقراطية أكثر ثراءٍ وترفاً من غيرها من الطبقات الأخرى وقد أدى ذلك إلى العناية بتفاصيل الحياة الباذخة ومتطلباتها[١] .

تُعد حقبة حكم هشام المؤيد[٢]، والحجابة العامرية (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م) حصيلة اجتمعت فيها جهود عقود طويلة من إنجازات الخليفتين الناصر والمستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ/ ٩١٢-٩٧٦م) ،ووصلت فيها الدولة الأموية إلى مرحلة متقدمة من القوة والتنمية والازدهار[٣]، على الرغم من ضعف مؤسسة الخلافة وسيطرة مُحَمَّد بن أبي عامر الملقب بالمنصور[٤] على سلطات الخليفة والحجر عليهِ ، والانفراد بإدارة الدولة من الناحية الفعلية ، ولقد كان لهذهِ السياسة أثرها الواضح على مستقبل البلاد ومصير وحدتها ، فعلى الرغم مما حققه الحاجب المنصور من إنجازات على الصعيد الداخلي والخارجي[٥]، إلا أنَّ ثمرة تلك الجهود ضاعت مع نهاية حكم ولده عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، وذلك لاستئثار العامريين بالسلطة وتغييب دور الخليفة هشام المؤيد الذي لم يبق له من السلطة إلا الاسم فقط[٦]، مما اوجد صراعاً بينهم وبين الحزب الأموي أيدتهُ قوى أندلسية كانت ترى في الحجابة العامرية

---

[١] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ١٤٤/٤ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٣٦١/١-٣٨٢ ؛ السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص٤٦٤ومابعدها .

[٢] هشام المؤيد : هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وهو العاشر من أمراء بني أمية بلاد الأندلس. بويع له بولاية العهد في حياة أبيه في غُرّة جمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة. وقيل في يوم الاثنين لخمس خلون من صفر منها، وهو ابن اثنتي عشرة سنة باتفاق الوزراء. وعلموا أن معه المغيرة بن عبد الرحمن ينازعه في الأمر ، فهُجم عليه في منزله فذُبح. وكان الذي تولّى قتْله مُحَمَّد بن أبي عامر المتغلب على هشام المؤيد . ينظر : النويري ، نهاية الأرب ، ٣٨٧/٦-٣٨٨ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٤٣ ومابعدها المقري ، نفح الطيب ، ١/ ٣٩٩.

[٣] المقري ، نفح الطيب ، ٣٧٩،٥٦٩/١ ؛ حتاملة ، الأندلس المحنة ، ص١٠٢ .

[٤] هو مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى، أمير الأندلس في دولة المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر بالله، والغالب عليه. أصله من الجزيرة الخضراء، ولسلفه بها قدر ونباهة، وقدم قرطبة شاباً، فطلب بها العلم والأدب وسمع الحديث... وكانت للمنصور همة ترمى به المرامى، ويحدث نفسه بإدراك معالي الأمور، ويزيد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك، فتم له مراده. ، ينظر: ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع، المجلد الأول، ص٥٦- ٥٧ ؛ الضبي، بغية الملتمس، ص؛١١٥ المراكشي، المعجب، ص٣٦.

[٥] غزا الحاجب المنصور في عهدهِ نيفا وخمسين غزوة لم تنكس له راية فيها قط ، وبلغ من قوتهِ العسكرية أنَّهُ غزا مدينة شنت يعقوب وهي أبعد نقطة وصلتها الجيوش العربية وكان من الانجازات العمرانية والاقتصادية ما يشهد بقوة سلطانهِ وقبضتهِ على مقاليد الأمور بيد من حديد . ينظر : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٥٩-٨٣ ؛ القحطاني ، الدولة العامرية ، ص٦١ ومابعدها .

[٦] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢٧٦/٢ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٩٠ .

نظاماً لابد من إنهائهِ وإعادة الحكم إلى الأسرة الأموية بعد سنوات من اغتصاب أرث الخلافة وتحجيم سلطة الخليفة ، ولم تفلح المؤامرات السياسية في القضاء على الحاجب المنصور أو ولدهِ عبد الملك المظفر[١] التي كُشفت خيوطها وأُعدم مدبروها[٢] .

توفي عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، وتولى من بعده أخوه عبد الرحمن شنجول[٣]، فكانت ولايتهُ وبالاً على الأندلس ومبعث تفرقتها وشتاتها ، إذ لم يكن شنجول رجل المرحلة ولا اهلاً لقيادة البلاد ، ولقد أساء التدبير وأسرف في استخدام ما كان لهث من سلطة حتى أُجبر الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٤٠٣هـ/٩٧٦-١٠١٢م) على منحهِ ألقاباً لم يكن يستحقها كما اجبرهُ فيما بعد على التنازل لهُ عن ولاية العهد وهي خطوة لم يتخذها الحاجب المنصور نفسهُ على الرغم من كل ما كان يتمتع بهِ من سلطات قوية ، كذلك لم يقدم عليها ولدهِ من بعدهِ عبد الملك المظفر ، ذلك أنَّ الحجاب العامريون كانوا يستخدمون شرعيتهم من وجود الخليفة الأموي باعتبارهِ رمزاً للخلافة في بلاد جُبلَ أهلها على الولاء للبيت الأموي لأكثر من قرنين ونصف من وجودهم حكاماً لبلاد الأندلس[٤] .

استطاع أحد أبناء البيت الأموي وهو مُحَمَّد بن هشام الملقب بالمهدي[٥] أنَّ يقود انقلاباً أنهى فيهِ حكم العامريين وخلع الخليفة هشام المؤيد وأعدم عبد الرحمن شنجول سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، ومنذ ذلك التاريخ ستدخل الأندلس مرحلة سياسية جديدة احتدم فيها الصراع بين فئات المجتمع الأندلسي وأحزابهِ وأصبحت السلطة نهباً يتداولها المتغلبون في معترك تهافتت فيهِ الأراذل والسوقة وسفلة الناس

---

[١] عبد الملك المظفر : هو أبو مروان المظفر بالله بن المنصور أبي عامر مُحَمَّد بن أبي عامر المعافري ولي الحجابة بعد موت أبيه سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م ، ولقب بالمظفر وسيف الدولة ، ولما تمت له الولاية نفذت كتبهِ إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة يُعلم بوفاة أبيه وتوليتهِ تدبير المملكة مكانه فاستوسق له الأمر ولم يرد أحد منهم طاعتهِ واجتمع الناس على حبهِ . ينظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/٣ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٨٤ .

[٢] ابن بسام ، الذخيرة ، ١/١٢٧-١٢٨ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢٩/٣ .

[٣] عبد الرحمن شنجول : قام بالأمر بعده أخيه المظفر، وتلقب بالناصر لدين الله، وقيل: بالمأمون، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه، ثمّ ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه،وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد، فكان يوماً مشهوداً، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد . ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ٤٢٤/١ .

[٤] النويري ، نهاية الأرب ، ٤٠٧/٢٣ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٣٧٣/٢٧ومابعدها .

[٥] مُحَمَّد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدي ، باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد وكان حاقداً على العامريين قتلهم أباه هشاماً في دولة المظفر عبد الملك ابن المنصور مُحَمَّد بن أبي عامر، لاتهامهم إياه بمبالاة الوزير عيسى بن سعيد القطّاع قتيل عبد الملك، فقام على هشام المؤيد في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وخلعه وحبسه عند وزيره الحسين بن حي، وقتل عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن أبي عامر- وهو الملقب بالناصر - وصلبه، وأدرك به ثأره. ينظر: الظبي، بغية الملتمس، ٢٢-٢٣؛ ابن الأبار، الحلة السيراء ، ٢/٥-٦ .

لتغليب مصالحهم دون الاكتراث لما عانته البلاد من أوضاع في ظل الحرب الأهلية التي أججتها سياسة مُحَمَّد المهدي التي أوجدت صراعاً بين عناصر المجتمع الأندلسي[١] .

كانت الفوضى التي عصفت بالبلاد وأرهقتها طيلة ثلاث وعشرين سنة قد أتت على بهاء عاصمة الخلافة واستنزفتها وقد كانت مدينة قرطبة *Cordova* الأوفر حظاً بين كل مدن الأندلس خراباً وأنتهاباً وعسفاً إذ دُمرت بُناها التحتية ومنشآتها العمرانية بأيدي العامة والسوقة ، وقد وصف ابن عذاري[٢] دخول القائمين مع المهدي إلى قصره الزاهرة[٣] في مشهد ينبئ عن عنف ما تعرضت له المدينة من اعتداء فما أنّ قتلَ العامة صاحب مدينة قرطبة حتى انثالوا نحو قصر الزاهرة وكسروا باب المدينة ودخلوا إليها وفيهم من ((العنازين والجزارين والسفلة وسائر غوغاء الأسواق ما لا يحصيهم إلا الله ...))[٤]، ولم يكتفِ المهدي بل أرسل من كسر سجن العامة فانطلق جميع من كان فيهِ من اللصوص والذعار وأصحاب الجرائم ، وسارعوا بالانضمام إلى مُحَمَّد المهدي وأنصارهِ ، ولنا أنّ نتصور كيف أضحت البلاد رهينة بين أيدي أولئك الذين أتخذ المهدي منهم من وزراء وإداريين وعسكريين ((عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ونكوب وزراء جلة ونصب أضدادهم تقتحمهم العين هجنة وقماءة ...، من أراذل العامة حجامين وخرازين وكنافين وزبالين ...))[٥] . إذ أنَّ أول عمل قامَ بهِ هو تسريح سبعة آلاف جندي من الخدمة كان جُلهم من البربر[٦]، الذين أعتمد عليهم العامريون أبان حكمهم اعتماداً كبيراً[٧] ، واستقدم منهم مُحَمَّد بن أبي عامر إعداداً كبيرة من المغرب شكلوا قوام الجيش الأندلسي والحرس العامري الذي أحكم العامريون به قبضتهم على البلاد[٨] ، ثم جاءت الخطوة الثانية التي كانت بمثابة الشرارة التي انبعثت منها نار الحرب الأهلية فأحرقت البلاد واتت على وحدتها إذ أمعن مُحَمَّد المهدي في

---

[١] ابن بسام / الذخيرة ، ٤٤/١ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٠٩ومابعدها .

[٢] البيان المغرب ، ٥٦/٣ .

[٣] الزاهرة : مدينة متصلة بقرطبة من البلاد الأندلسية، بناها المنصور بن أبي عامر لما استولى على دولة خليفته هشام، وقد وقف الخليفة الحكم وقف من الأثر على البقعة التي بنيت فيها الزاهرة، وكانت ملوك المروانية قبله تتخوف ذلك، وكان ألهجهم بشأنها الحكم،فنظر فيها وقاس على مجالها البقعة المدعوة بألش. ينظر: الحميري،الروض المعطار، ص٢٨٣

[٤] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٥٦/٣ .

[٥] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٧٤/٣ .

[٦] البربر : هم السكان الذين سكنوا شمال إفريقيا ، استطاعوا العيش مع العرب وخالطوهم ، وانتقل الكثير منهم إلى بلاد الأندلس بعد وصول المسلمين أليها ، واشتركوا في حملة طارق بن زياد التي توجهت إلى بلاد الأندلس واستقروا في مواطن متعددة من أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية ، أغلبها كانت قاحلة لهذا ما لبثوا أن اخلوا تلك المناطق ونزحوا جنوباً نحو المناطق الخصبة . ينظر : الكعاك ، موجز التاريخ العام ، ص٢٣ .

[٧] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٧٨/٣ ؛ ابن الخطيب ، أعمال العلام ، ص١١٢-١١٣ .

[٨] ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٠٢ ، مؤنس ، معالم تاريخ المغرب ، ص٣٩٣ومابعدها .

إهانة زعماء البربر والإساءة لهم والحط من أقدارهم واستفزازهم ، إذ لم يستطع المهدي إخفاء بغضه للبربر لأنهم كانوا دعامة الدولة العامرية الذاهبة التي أخملت سلطان قومهِ وسلبتهم دولتهم وقد شاطرهُ في هذا الشعور عامة أهل قرطبة من الأندلسيين[١]، وقد أفرزت هذهِ السياسة ردود فعل قوية لدى البربر إذ اجتمعوا حول شخصية أموية أخرى وبايعوه خليفة عليهم وهو هشام بن سليمان الذي لقب بالرشيد[٢] ، ، ولم يطل الوقت حتى استطاع المهدي أنّ يقبض عليهِ ويقتله ، فكان ذلك وبالاً على البربر من سكان قرطبة ، إذ تداعت عامة المدينة إلى قتلهم ونهب دورهم ((واشتعلت الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة وأمر أبن عبد الجبار أنّ يُنادى في الناس من أتى برأس بربري فلهُ كذا فتنازع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليهِ ...))[٣]، وقد قُتل في هذهِ الموجة من أعمال العنف شخصيات بربرية كان لها وزنها في المجتمع الأندلسي سياسياً ودينياً واجتماعياً ، كان منهم من ذُبح على فراشهِ أو أمام أعُين أهله ، كما هُتكت حريمهم وسُبي نساؤهم وباعوهن في دار البنات وقتلوا النساء الحوامل إلى غير ذلك مما ارتكب من الفضائع بحق البربر[٤] . كانت الحرب سجالاً بين عامة أهل قرطبة *Cordova* وخليفتهم المهدي من جهة والبربر وخليفتهم سليمان المستعين[٥] – الذي اختاروه بعد الرشيد– من جهة أخرى ، فقد تعرض عامة القرطبيين إلى أعمال قتل وتنكيل من قبل البربر الذين اجتاحوا المدينة عقبَ هزيمة قوات مُحمَّد المهدي سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، إذ ((وضع البربر السيف على أهل قرطبة فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وغرق كثير منهم في الوادي وهلكوا وفُني الجميع بسقوط بعضهم على بعض ، ودخل البربر ارباض قرطبة ، وبات الناس على سطوح دورهم في وجل وخوف ...))[٦] .

استطاع مُحمَّد المهدي استرداد سلطانهِ من جديد بمساعدة النصارى الأسبان وعاد إلى قرطبة بعد هزيمة قوات المستعين في العام نفسهِ ليدخلها مُعلناً نفسه خليفة للمرة الثانية ، ثم ما لبث أنّ قُتل بتدبير

---

[١] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨٧/٣ .

[٢] هشام بن سليمان :هشام بن سليمان بن الناصر الملقب بالرشيد ، تزعم ثورة كبرى سنة ٣٩٩هـ ،قام بها ضد مُحمَّد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي ، فتعصبت العامة للمهدي ووقفوا ضد هشام ومن آزره من البربر ، فكان مصيره القتل وانتهبت دورهِ ودور البربر . ينظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، ٢/ ٥-٦؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١١٢-١١٣ .

[٣] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨٣/٣ .

[٤] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨١/٣ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤٢٧/١ .

[٥] سليمان المستعين : سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (أبو أيوب) ،كان من أهل العلم والفهم، أديباً فصيحاً شاعراً، له رسائل وأشعار بديعة، أستعان بالبربر في الفتنة ، وحينما فتح قرطبة بويع بالخلافة وتلقب بالظافر بحول الله وظفر بأهلها وأمعن بالقتل والسبي .ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٥٠/٣-٥٢ ؛ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ٥/١ ومابعدها .

[٦] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨٩/٣ .

من الفتى واضح الصقلبي[١] ، الذي دبر حيلة لإعادة الخليفة هشام المؤيد المخلوع إلى السلطة سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، ودعا واضح البربر وخليفتهم سليمان إلى الرجوع إلى طاعة هشام المؤيد ونبذ الخلاف والدخول فيما دخل فيهِ الناس لقطع دابر الفتنة ، إلا أنَّ البربر رفضوا ذلك وأصروا على مواصلة القتال فكانوا يغيرون على أحواز المدن والعاصمة قرطبة *Cordova* فيقتلون ويأسرون وينهبون مما اضطر هشام المؤيد ومدبر دولتهِ واضح الصقلبي إلى الاستنجاد بالنصارى الأسبان للتخلص من خطر المستعين وجيشهِ ، وفي هذهِ الأثناء عزمَ واضح الصقلبي على الهروب بعدما رأى أنّ لا جدوى من مواصلة وجودهِ إلى جانب هشام المؤيد وسط تلك الأحداث المعقدة إلا أنَّ أمره أُكتشفَ وقُتلَ على يد جماعة من إتباعهِ الصقالبة[٢] ، لم يلبث أنّ تمكن سليمان المستعين من دخول قرطبة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، وإعلان نفسهُ خليفة للمرة الثانية ، وقتل هشام المؤيد[٣]، وقد وصف ابن حيان عهد الخليفة المستعين قائلاً ((فملك سليمان قرطبة في دولتيه ست سنين وعشرة أشهر ، وكانت كُلها ... شداداً نكدات صعاباً مشؤومات كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يُعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور مع تغير السيرة وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ...))[٤] .

كانت سياسة محمد المهدي تجاه بني حمود الأدارسة قد أطمعتهم في الاستيلاء على السلطة ، ذلك أنَّهُ منح علي بن حمود[٥]، مدينة سبته

---

[١] واضح الصقلبي : من الصقالبة وهو من موالي المنصور بن أبي عامر صاحب مدينة سالم ، ومن كبار الفتيان وممن كان لهم شأن في الفتنة البربرية إذ قام بأمر مُحَّد المهدي بعد خلعهِ لهشام المؤيد سنة ٣٩٩هـ ، ووقف معه في حربهِ ضد سليمان المستعين لكنه فيما بعد قتل مُحَّد المهدي ، وقام بتجديد البيعة لهشام المؤيد، هو وأنصاره، وتولى حجابته ثم قتل بعد ذلك على يد مجموعة من الفتيان الذين تآمروا عليه حين علموا برغبتهِ في الهروب . ينظر : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ٧/٢ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ١٣٩/٢؛ النويري ، نهاية الأرب ، ٤٢٠/٢٣ .

[٢] الصقالبة : أطلق الجغرافيون العرب كلمة الصقالبة على الرقيق الذين كانوا يجلبون إلى البلاد الإسلامية من شتى أنحاء أوروبا ، ولاسيما من بلغاريا العظمى التي امتدت أراضيها من بحر قزوين إلى البحر الادرياني ، وكلمة صقلَب أو صقلاب تعني الرجل الأبيض ، وقيل الرجل الأحمر على التشبيه بألوان الصقالبة ، وقد استعمل الجغرافيون العرب مفردات عدة تخص الصقالبة ، فقالوا: صقلب أو صقلابي أو سقلبي بالسين بدلاً عن الصاد . ينظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١١٠ ؛ العبادي، احمد مختار، الصقالبة في اسبانيا ، ص٨ .

[٣] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨٧/٣ومابعدها .

[٤] ابن بسام (برواية ابن حيان) ، الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الأول ، ص٣٦ .

[٥] علي بن حمود : علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن أدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو أول خلفاء بني هاشم بالأندلس ، تلقب بالناصر لدين لله وكنيتهِ أبو الحسن ، لحق بالعدوة المغربية وتغلب على سبته ، ثم عاد إلى الأندلس لما أستوسق الأمر لسليمان ، مات مقتولاً على يد الصقالبة سنة ٤٠٨هـ. ينظر: ابن الابار،الحلة السيراء، ٧/٢، ١٨، ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٢٨-١٢٩

Ceuta[١] ،و القاسم بن حمود[٢] الخضراء *Algecira* [٣] ، فلم يلبث علي بن حمود أنّ نازع المستعين خلافته حتى استطاع دخول مدينة قرطبة *Cordova* وإنهاء حكم المستعين وإعلان نفسهِ خليفة سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م ، لكنهُ قُتل بعد سنة واحدة وتسعة أشهر من خلافتهِ ، ليتولى من بعدهِ أخيهِ القاسم بن حمود ، ثم ما لبث أنّ خُلع من منصبهِ ، وفي خضم هذا الصراع كان أحد أبناء البيت الأموي قد دعا لنفسهِ بشرق الأندلس وهو عبد الرحمن بن مُحَمَّد المرتضى[٤]، الذي أجتمع حوله الموالي العامريون وغيرهم ممن رفض خلافة الحموديين ، إلا أنَّ البربر استطاعوا هزيمته هزيمة منكرة سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م[٥] في مدينة غرناطة *Granada* [٦] . ثم عادت الخلافة من جديد في الأسرة الأموية وتولاها عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمستظهر[٧]، ثم أعقبهُ مُحَمَّد بن عبد الرحمن

---

[١] سبتة : مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق ، وهو أول البحر الشامي المنتهي إلى مدينة صور من ارض الشام ، وهي تقابل الجزيرة الخضراء ... ، ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٠٣ .

[٢] القاسم بن حمود : تقدم نسبه في تعريف أخوه علي بن حمود ، تولى الخلافة بعد مقتل أخيهِ علي بن حمود سنة ٤٠٨هـ ، وتلقب بالمأمون ، وكنيتهُ أبي مُحَمَّد ، وكان وادعاً أمن الناس معه، ويذكر عنه أنه يتشيع، ولكنه لم يظهر ذلك، ولا غير للناس عادة ولا مذهبا، وكذلك سائر من ولى منهم بالأندلس، فبقى القاسم كذلك إلى قام عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقة، فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال، وصار بإشبيلية، وزحف ابن أخيه المذكور من مالقه بالعساكر، فدخل دون مانع، وتسمى بالخلافة، وتلقب بالمعتلى، فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره، واستمال البربر، وزحف بهم إلى قرطبة، فدخلها في سنة ٤١٣هـ، ثم غلب عليهِ رؤساء البرابرة المستولون على الكور والفتيان العامريون، واتفقوا على إعادة الدولة الأموية ، ومات القاسم بن حمود سنة ٤٣١هـ وله من العمر ثمانون سنة . ينظر : الظبي ، بغية الملتمس ، ص٢٨-٢٩ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ١/ ٤٥٨-٤٥٦ .

[٣] الجزيرة الخضراء ، ويقال لها جزيرة أم حكيم وبينها وبين قلشانه أربعة وستون ميلاً ، وهي على ربوة مشرفة على البحر سورها متصل به . ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص٢٢٣ .

[٤] عبد الرحمن بن مُحَمَّد المرتضى : هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، لقبَ بالمرتضى ، رجلاً صالحاً مائلاً إلى الفقه ، حاول انتزاع الملك من بني حمود إلا انه لم يستطع ذلك ، وقتل على يد زاوي بن زيري سنة ٤٠٩هـ . ينظر : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٣٠، ١٣٨ .

[٥] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١٢١/٣ ، ١٢٥ومابعدها ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٣٠-١٣٢ .

[٦] غرناطة : مدينة بالأندلس بينها وادي آش أربعون ميلاً وهي من مدن البيرة ، وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى غرناطة ... ، ينظر : الحموي ، معجم البلدان ، ٢/ ٣٧١-٣٧٢ ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص٤٥ .

[٧] عبد الرحمن بن هشام : عبد الرحمن بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر، أبو المطرف المستظهر بالله أخو أبي الوليد مُحَمَّد بن هشام المهدي، بويع له بالخلافة بقرطبة في رمضان سنة ٤١٤هـ، بعد ذهاب دولة بني حمود وانقراضها من قرطبة، وهو ابن ثلاث – أو اثنتين –وعشرين سنة. ثم ثار عليه ابن عمه المستكفي في طائفة من أراذل العوام، فقتل

المستكفي[١] ، ثم عادت الخلافة من جديد في الأسرة الحمودية وتولاها يحيى بن حمود للمرة الثانية[٢] ، ثم خلع لتعود من جديد في الأسرة الأموية وكان آخر خلفائهم[٣] هشام الثالث المعتد بالله[٤] ،الذي قرر وجهاء قرطبة *Cordova* وكبار رجالاتها وعلى رأسهم أبي الحزم بن جهور[٥] إعلان إنهاء خلافتهِ وإلغاء مؤسسة الخلافة برمته سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م ، بعد أنّ مل الشعب الأندلسي تعاقب تلك الشخصيات التي لم تقدم قيادتها للأندلس أي نفع بل زادت من حدة الصراع واتساع الهوة بين فئات المجتمع الأندلسي حتى أنهكهُ مُعترك الحرب الأهلية[٦] والانقلابات الدموية التي تنبئ عن مدى ما وصلت إليهِ الأوضاع من

المستظهر لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة، فكانت خلافته سبعة وأربعين يوماً؛ ولم يعقّب. ينظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، ١٢/٢ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤٣٦/١ .

[١] مُحَمَّد بن عبد الرحمن المستكفي : مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن مُحَمَّد ، ثار على على ابن عمهِ عبد الرحمن بن هشام ، فقتله ، وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمستكفي ، واستقلّ بأمر قرطبة، وهو والد الأديبة الشهيرة ولاّدة، ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى المعتلي يحيى بن عليّ بن حمّود سنة ٤١٦هـ، وخلع أهل قرطبة المستكفي، وولى عليهم لمعتلي من قبله، وفرّ المستكفي إلى ناحية الثغر، ومات في مفرّه . ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ١/ ٤٣٧-٤٣٨ .

[٢] يحيى بن حمود : هو يحيى بن علي الحمودي الحسني ، بويع للخلافة بقرطبة سنة ٤١٢هـ وتلقب بالمعتلي ، واجتمع عليهِ البربر والأندلسيين ، وكان شريف النسب كريم الولادة ، ، ثارَ بقرطبة على مظالم المستكفي فخلعه أهل قرطبة وولوا عليهم المعتلي ، وكان ذلك سنة ٤١٦هـ . ينظر : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٣٢ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤٣٧/١-٤٣٨ .

[٣] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١١٧/٣ ومابعدها ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٢٨ومابعدها .

[٤] هشام المعتد بالله : هشام بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أمهُ أم ولد اسمها عاتب ، بويع بالخلافة سنة ٤١٨هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، ولم يبق إلا أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة عشر يوماً حتى قامت عليهِ فرقة من الجند فخُلعَ ، وانقطعت أمر الدولة الأموية في الأندلس ، واستولى على قرطبة أبو الحزم بن جهور ، توفي هشام المعتد سنة ٤٢٧هـ دون عقب له فانقطعت دولة بني مروان . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٢٧ ومابعدها ؛ الظبي ، بغية الملتمس ، ص٣٤-٣٦ ؛ ابن عذاري ، البيان ٣/ ١٤٥-١٤٨ .

[٥] أبي الحزم بن جهور : الوزير الأجلّ جهور بن مُحَمَّد بن جهور، [وبنو جهور] أهل بيت وزارة، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، وانجدهم في الملمّات، ركب متون الفتون فراضها، ووقع في بحور المحن فخاضا غمارها ، فلمّا انقرضت وانتهت الفتن واعترضت، تحيز عن التدبير مدّتها، وخلّى لخلافه أعباء الخلافة وشدّتها، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر، وينهل الأمر معهم ويدبّر، غير متصرّف في ميدان ذلك الطّراد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، وسوّغت ما شاءت رداها، وذهب من كان يجد في الرياسة ، ويسعى في الفتنة ينظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، ٣٠/٢ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٣٠٢/١-٣٠٣ .

[٦] ابن بسام ، الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الأول ، ص٦٠٢ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١٤٥/٣ومابعدها ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٣٨ ومابعدها .

تردٍ وانحلال إذ أنّ عدد من حكم الأندلس من خلفاء بني أمية في الحقبة الزمنية الممتدة بين سنتي (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٨-١٠٣٠م) ،كان عشرون خليفة منهم من حكم لمرتين وهو ما يعادل عدد من حكم منهم طيلة ٢٦١سنة وهي حقبة عصري الإمارة والخلافة منذُ سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وحتى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م[١]، وقد استنزفت أبان ذلك الصراع أكثر إمكانيات البلاد ومقدراتها المادية والبشرية واحتدمت فيها مشاعر البغض والعنصرية والتعصب العرقي بين أجناس المجتمع الأندلسي الذي تعددت فيهِ الأعراق[٢] ، فكان أقواها وأكثرها تأثيراً التعصب بين البربر وباقي فئات الشعب الأندلسي من العناصر الأخرى[٣] .

تفرقت الأندلس بعد إلغاء الخلافة إلى دويلات متفرقة يحكم كل واحد منها حاكم تمتع بموقع سياسي أو ديني أو اجتماعي سابق التفَ حوله جمع من أنصارهِ ومؤيديهِ ، وقد انقسمت الأندلس عقب الفتنة من الناحية الإقليمية إلى ست مناطق رئيسة : الأولى منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضي الوسطى ، والثانية منطقة طليطلة *Toledo* [٤]والثغر الأوسط والثالثه أشبيلية *Sevilla*[٥] *Sevilla*[٥] وغربي الأندلس وما إليها من الأراضي حتى المحيط الأطلسي ، والرابعة غرناطة وريه [٦] ، والخامسة منطقة شرق الأندلس أو منطقة بلنسية *Valencia* [٧]، وما إليها شمالاً وجنوباً والسادسة منطقة

---

[١] عويس ، ابن حزم ، ص٢١ .

[٢] توفيق ، صورة المجتمع الأندلسي ، ص٩١-٩٤ ؛ دويدار ، المجتمع الأندلسي ، ص٨ومابعدها .

[٣] مؤنس ، معالم تاريخ المغرب ، ص٤٠٨ .

[٤] طليطلة : مدينة بالأندلس بينها وبين البرج المعروف بوادي الحجارة خمسة وستون ميلاً ، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسية تسع مراحل أيضاً ومنها إلى المرية في البحر الشامي تسع مراحل أيضاً . ينظر الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٩٣ .

[٥] أشبيلية : مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون، وهي مدينة قديمة أزلية يذكر أهل العلم باللسان اللطيني أن أصل تسميتها أشبالي معناه – المدينة المنبسطة – ويقال إن الذي بناها يوليوس القيصر وإنه أول من تسمى قيصر .ينظر :الحميري ، الروض المعطار ، ص٥٨ .

[٦] ريه : كورة من كور الأندلس في قبلي قرطبة نزلها جند الأردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات. ينظر : الروض المعطار ، ص٢٧٩-٢٨٠ .

[٧] بلنسية : مدينة تقع في شرقي الأندلس ، بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يوماً وعلى الجادة ثلاثة عشر يوماً ، وهي مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس في مستوٍ من الأرض عامرة القطر كثيرة التجارات وبها أسواق وحط وقلاع . ينظر الحموي ، معجم البلدان ، ٢/ ٢٧٩ ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص٩٧ .

سرقسطة *Zaragoza* [١]، والثغر الأعلى بالإضافة إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية التي استقلت ثم احتفظت تباعاً بالانضمام أو الخضوع إلى أحدى الإمارات الأخرى[٢] .

حياته : اسمهُ ونسبهُ .

هو أبو مُحَمَّد علي بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي، مولى يزيد بن أبي سفيان[٣] ، ولد أبو مُحَمَّد في مدينة قرطبة *Cordova* سنة ٣٨٤هـ/٩٥٩م[٤] ، وجدهُ يزيد أول من اسلم من أجدادهِ واصلهُ من فارس ، وجده خلف أول من دخل دخل الأندلس من آبائهِ[٥] ، وقد أثبت ابن حزم تاريخ ولادتهِ في الساعة واليوم والشهر الشمسي والقمري والقمري في رسالة بعث بها إلى ابن صاعد الأندلسي بقولهِ : ((ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس ، وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح ، آخر ليلة الأربعاء من شهر رمضان المعظم ، وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بطالع العقرب ...))[٦] ، وهذا أمر قلما يتهيأ لأحد في تلك الأزمنة أنّ يحدد تاريخ ميلادهِ بهذهِ الدقة حتى الكثير من العظماء مما يدل على عناية أسـرة ابن حـزم بتواريخ ميلاد أبنائها ، وهو نوع من الـرقي الفكري والعناية بالتاريخ[٧] ، ، أمـا مستقر أسرتهِ وبلدهم في أحدى قرى لبلة *Niebla*[٨] في غرب الأندلس وولاؤه وولاء أسرتهِ لبني أمية[٩] .

---

[١] سرقسطة : مدينة في شرق الأندلس وهي قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن متصلة الجنات والبساتين ، وهي على ضفة نهر كبير يأتي بعضه من بلاد الروم من جبل قلعة أيوب ومن غير ذلك ، فتجتمع هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة . ينظر: الحموي ، معجم البلدان ، ٥/ ٧١؛ الحميري ، الروض المعطار ص٣١٧.

[٢] عنان ، دولة الإسلام ، (دول الطوائف) ، ص١٧ .

[٣] ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص٩٧ .

[٤] الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٧٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ١٨٤/١٨.

[٥] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٢٥/٣ .

[٦] ابن بشكول ، الصلة ، ٤١٥/٢-٤١٦ ؛ وينظر أيضاً : الحموي ، معجم الأدباء ، ٢٣٥/١٢ .

[٧] أبو زهرة ، تاريخ المذاهب ، ص٥١٥ .

[٨] لبلة : مدينة قديمة تقع في غرب الأندلس ، بها ثلاث عيون إحدها عين تهشر وهي أغزرها ، والثانية عين تنبعث بالشب ، والثالثة عين تنبعث بالزج ومن إشبيلية طلياطة مرحلة عشرين ميلاً ومن طلياطة إلى لبلة مرحلة مثلها ... ينظر الحميري ، الروض المعطار ، ص٥١١-٥١٢ .

[٩] ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص٩٨ ؛ الحموي ، معجم الأدباء ، ٢٣٥/١٢ .

شكك معاصر ابن حزم المؤرخ ابن حيان[١] ، في نسب ابن حزم لفارس وقال أن ادعاءه جاء بعد حقبة من الدهر عُرف فيها آل حزم بأنهم أسرة من المولدين من عجم لبلة *Niebla* وجدهم حديث عهد بالإسلام ، وأنَّ هذا الادعاء جاء بعد أنّ تولى أبوه أحمد بن حزم[٢]، منصب الوزارة أيام الدولة العامرية ليتفاخر ويعتز بهِ ، ولكننا مع وضوح نص ابن حيان لا نستطيع أنّ نجزم بأن ابن حزم لم يكن من أصل فارسي وأنَّ أصله من عجم الذمة ، ذلك أنَّ الأندلس كانت موطناً لكثير من موالي بني أمية الذين دخلوا الأندلس مع بدايات الفتح واستقروا بها وتناسل أعقابهم ، وكانت منهم أسر مشهورة وبيوتات معروفة[٣] ، وهم من أصول رومية وفارسية على الأكثر[٤] ، فضلاً عن أنَّ هذا التشكيك لم يأتِ إلا من ابن حيان، وأنَّ من أشار إليهِ من المؤرخين قد نقلَ عنهُ في حين لم يشكك بنسبه لفارس مؤرخون آخرون ترجموا لهُ وعاصروه أيضاً ومنهم تلميذهُ الحميدي[٥] الذي عرفهُ عن قرب ، وابن صاعد الأندلسي[٦] الأندلسي[٦] وإضافة إلى هذا وذاك لم يكن ابن حزم وهو الأعلم بالأنساب ليضع نفسه موضع التهمة حين ارجع نسبه لفارس وهو في غنى عن مثل هذا الادعاء لم يكن ذلك حقيقياً[٧].

نشأ ابن حزم في أسرة أندلسية موسرة ، وتقلب في نعيم الغنى والرفاه وحياة القصور الباذخة للطبقة الارستقراطية ونستطيع أنّ نكون صورة عن تلك الحياة الرغيدة التي عاشها في كنف والدهِ الوزير وفي قصر عائلتهِ في مدينة الزاهرة ، وقد تحدث ابن حزم عن بهاء ذلك القصر وكيف أنَّهُ نشأ محاطاً بالخدم والجواري ، وكغيرهِ من أبناء الأغنياء لنا أنّ نتصور كيف كانت تربيته والعناية بهِ في حجور جواري القصر اللواتي علمنهُ القرآن وروينهُ كثيراً من الأشعار ودربنهُ في الخط ، وكان هذا أول ما تلقاهُ من معارف في سنوات طفولتهِ[٨] .

---

[١] الحموي (برواية ابن حيان)، معجم الأدباء، ٢٥٠/١٢؛ ابن سعيد ، المغرب ، ٣٥٥/١ ؛ عويس، ابن حزم، ص٥١

[٢] أحمد بن حزم : الوزير أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي ، وزرَ للمنصور بن أبي عامر ، ومدبر دولة هشام المؤيد ، وهو كاتب وشاعر ، توفي سنة ٤٠٢هـ . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص١٢٦ ؛ ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٥١/١-٢٥٢ ؛ ابن بسام ، الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الأول ، ص١٦٧-١٧٠ ، الحموي ، معجم الأدباء ، ٢٥٠/١٢ .

[٣] الحميداوي ، الأحوال الاجتماعية ، ص٤٨-٤٩ .

[٤] ابن القوطية ، تاريخ ، ص٤٤-٤٥ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٥١/٣ ، ١٢١ .

[٥] جذوة المقتبس ، ص٢٧٢ومابعدها .

[٦] طبقات الأمم ، ص٩٧ومابعدها .

[٧] عويس ، ابن حزم ، ٤٥-٤٧ .

[٨] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٦٦/١ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ .

أنَّ أكثر ما نعرفهُ عن أسرة ابن حزم وحياتهِ الشخصية ما ذكره هو ، وفي كتاب طوق الحمامة أشارات مهمة عن ذلك اقترنت سنوات صباه ومطلع شبابهِ بتجربة حب تركت أثرها في نفس ابن حزم ، وتحدث عن ذكرياتهِ معها ، وقد كان ذلك في حدود سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، كان لهُ من العمر يومها خمسة عشر سنة أو أكثر ، وقد وافق ذلك سقوط الدولة العامرية وبداية تدهور أوضاع البلاد ونشوب الحرب الأهلية وما شهدتهُ حياة ابن حزم ، وحياة عائلتهِ من تبدل الأحوال وانتقالهِ مع عائلتهِ من قصورهم بالجانب الشرقي من قرطبة إلى الجانب الغربي منها ببلاط مغيث[١]، وقد أوجب ذلك أنّ يفارق ابن حزم الفتاة التي أحبها لسنوات أنشغل خلالها بما أصابه من محن وخطوب الفتنة والحرب التي أنهكت البلاد العباد[٢] ، ويخبرنا ابن حزم أيضاً عن امرأة أخرى في حياتهِ وهي جاريتهُ نُعم التي أحبها كثيراً ، وتعلق وتعلق بها ولم يكمل العشرين سنة من عمرهِ ، إلا أنَّ الأقدار شاءت أنّ يفارقها لا بالرحيل عنها هذهِ المرة ، ولكن بموتها ، إذ كانت تلك الحادثة أكثر قسوة وإيلاماً لهُ من كل ما مر بهِ من أحداث ومحن ، وقد وصف لنا حاله بعد موتها قائلاً : ((فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولاتفترُ لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن ... وماطاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ... ولقد عفى حبي لها على كل ما قبلهُ وحرم ما كان بعده ...))[٣]. ولم يذكر ابن حزم حزم شيئاً آخر عن زواجهِ من امرأة أخرى ولا نعلم أنّ كانت نُعم هذهِ هي أم ولدهِ الفضل المكنى بأبي الربيع الذي ينقل شيئاً عن أخبار والدهِ [٤] .

كان لابن حزم أخ كبير يدعى أبو بكر كان متزوجاً من إحدى بنات رجل من رجال المنصور بن أبي عامر، وقد توفي سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م ، في طاعون قرطبة *Cordova* ولا نعلم أنّ كان له أخوة آخرين أو أخوات ، ولعلَّ ذكره لوفاة أخيهِ أبي بكر هو الحدث الذي دلنا على وجوده[٥]، أما والدة ابن حزم فلا نعلم شيئاً عنها ويرجح أحد الباحثين[٦]، أنَّ والدته قد توفيت في سن مبكرة من عمره لعدم ذكرها فيما ساقه من تفاصيل كثيرة عن حياتهِ ، لكنهُ يشير إلى شخصية يدعوها سيدة القصر يبدو أنها كانت أحد زوجات أبيهِ .

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٥٢/١ .

[٢] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٥٠/٣ ومابعدها ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٠٩ومابعدها .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٢٤/١ .

[٤] الحموي ، معجم الأدباء ، ٢٣٨/١٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٢٦/٣ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٨٦/١٨ .

[٥] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٥٩/١ .

[٦] عويس ، ابن حزم ، ص٥٦

علمهُ ومذهبه ومؤلفاتهِ .

كان ابن حزم عالماً موسوعياً ألمَ بجملة من علوم عصرهِ ، وقد اجمع المؤرخون[١] على أنَّهُ كان متضلعاً بعلوم الحديث وفقههِ ، إذ كان فقيهاً مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، وإلى جانب هذهِ العلوم الدينية فقد كان متعمقاً في علم اللسان ووفور حظهِ من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار[٢] ، وقد جمع ابن حزم بين علم الفقه وعلم الفلسفة ، فهو فقيه وفيلسوف وقلما نرى عالماً جمع بينهما ، لما كان بين الفلاسفة والفقهاء من خلاف وصلَ حد التكفير والوسم بالإلحاد والزندقة ، ولقد كان علم الفلسفة علماً محظوراً في بلاد الأندلس ممقوتاً من العامة والخاصة إلا ما ندر مما تداوله الناس بالخفاء[٣]، ونقلت لنا الروايات طرفاً من أخبار الفلاسفة الذين تآلب عليهم الفقهاء وتحالفوا للنيل منهم لو لا مواقف بعض الحكام ، كما حدث أيام الحكم المستنصر ، ولكن الأمور كانت أكثر سوءاً أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي أحرق كتب الفلسفة والمنطق وما يرتبط بمثل هذهِ الاختصاصات ، حتى أفرغ مكتبة قصر الزهراء منها ، وكان ذلك سعياً منهُ في إرضاء فقهاء عصره[٤] . ولموقف الفقهاء من الفلسفة نرى الذهبي[٥] ترجم لابن حزم وتحدث عن إلمامهِ بعلم الفلسفة والمنطق قائلاً :((قد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر وفي المنطق وأجزاء الفلسفة فأثرت فيهِ تأثيراً ليتهُ لسلم من ذلك ، ولقد وقفت له على تأليف يخص فيهِ الاعتناء بالمنطق ، ويقدمه على العلوم فتألمت له ، فأنهُ رأس في علوم الإسلام ...)) ، وقد أثرت دراسة ابن حزم للمنطق في منهجه ودراسته للعلوم التي أخذها فنحن نجد لديهِ عقلية منطقية مرتبة ، تحسن تقديم المقدمات وإنتاج النتائج ، وتنفر من الحشو واللغو والاستطراد وتعرفَ كيف تسير في عرض موضوعها بطريقة منهجية منظمة[٦] .

---

[١] ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص٨٩ومابعدها ؛ الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٢٧٧-٢٧٩ ؛ ابن بسام ، الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الأول ، ص١٦٧-١٧٠ ؛ الحموي ، معجم الأدباء ، ٢٣٥/١٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٢٥/٣ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٨٤/١٨ .

[٢] ابن بشكوال ، الصلة ، ٤١٦/٢.

[٣] ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص٨٧ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٢٢١/١ .

[٤] ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص٨٧ .

[٥] سير أعلام النبلاء ، ١٨٤/١٨ .

[٦] إبراهيم ، ابن حزم الأندلسي ، ص٥٧ .

مذهبهُ

بذل ابن حزم الأندلسي جهداً هائلاً في تنقيح مذهب أبي سليمان داود بن خلف[١]، إمام أهل الظاهر وجادل عن هذا المذهب جدالاً عنيفاً ، ووضع الكثير من الكتب والرسائل في شرحهِ وتفسيرهِ[٢]، إذ اختار ابن حزم الظاهرية بتأثير ظروف فكرية وتاريخية أوجبت لديهِ ذلك ففي العصر الذي ساد فيهِ الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية أصبح الفقهاء أكبر عضد لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وانحرافهم ابتزازاً للأموال وسعياً وراء المناصب ، وقد أتيح لابن حزم أنّ يقرأ الفقه المالكي وغيره من المذاهب ، وأنّ يمعن النظر في الأحكام التشريعية التي جاءت بها أو دونتها ، وقد رأى أنَّ أسباب الخلاف الشديد بينها أنَّ القياس وما إليهِ من الاستحسان قد أصبح مركباً ذلولاً استطاع بهِ جماعة من الفقهاء أنّ يوافقوا بين إحكامهم وفتاويهم وبين مقتضيات الحياة القاسية التي عاشوها ، ولهذا كان الفقه من مصادره الأساسية وفي إطار دوره الاجتماعي والاقتصادي الإيجابي ميداناً لجأ إليهِ ابن حزم ليصلحُ من خلالهِ أوضاع المجتمع الفاسدة[٣] .

تدرج ابن حزم من المذهب المالكي الذي كان سائداً في الأندلس إلى المذهب الشافعي ثم انتهى بهِ الأمر إلى المذهب الظاهري ، لكنهُ لم يكن فيهِ كشأن تابعي المذاهب وإنما خالف فيهِ أبي داود في كثير من المسائل الأساسية بحيث يمكن القول أنَّ ظاهريته منهجية لا مذهبية وبأنَّ لابن حزم نظراته الخاصة التي جعلت كثيرين يسمون اجتهاده الفقهي بالمذهب الحزمي أو الحزمية[٤] ، إذ كان منهجهُ في دراسته للمنقول أو النصوص الاعتماد على ما يؤخذ من ظاهر ألفاظها فهو لا يحاول تأوليها أو تعليلها بتعريف العلة التي قام عليها الحكم والقياس عليها ، وهو يطبق الأخذ بظواهر الألفاظ في كل الموضوعات التي وردت فيها نصوص[٥] .

---

[١] أبي سليمان داود بن خلف بن علي بن خلف الأصفهاني الملقب بالظاهري ، أحد أئمة الفقه والاجتهاد في الإسلام، وتنسب الفرقة الظاهرية أو الداوودية إليهِ ، وقد اعرض في منهجهِ الفقهي عن التأويل والرأي والقياس مكتفياً بظاهر القرآن وبالنسبة إلى الإجماع ، فقد قال بإجماع صحابة النبي (ص) ، أو إجماع جميع علماء الأمة . توفي سنة ٢٧٠هـ . ينظر : مشكور ، موسوعة الفرق الإسلامية ، ص٢٤٣-٢٤٤ .

[٢] إبراهيم ، ابن حزم الأندلسي ، ص١٨٠ .

[٣] عويس ، ابن حزم ، ص٨٥ ومابعدها .

[٤] عويس ، ابن حزم ، ص٨٩ ؛ أبو زهرة ، تاريخ المذاهب ، ص٥٣٨ .

[٥] الزغبي ، ظاهرية ابن حزم ، ص١٢٣ .

شيوخه وتلاميذه .

ذكرنا أنَّ ابن حزم تلقى تعليمه الأولي طفلاً في قصر والدهِ وعلى يد جواري ذلك القصر ، وأنَّهُ تعلم القراءة والكتابة والخط ، كما حفظَ القرآن وكثيراً من الأشعار[١]، لكن أول سماعهِ من شيوخ عصرهِ سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، وكان أول من سمع من شيوخهِ هو الشيخ أحمد بن الجسور[٢]، كما سمع من أبي الوليد بن الفرضي[٣] ، والقاضي أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري[٤]، وعبد الرحمن الهمذاني[٥] ، وحمام بن أحمد[٦]، كما روى عن القاضي يونس بن عبد الله[٧] ، وأبي مُحَمَّد بن بتوش

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٦٦/١ .

[٢] أحمد بن الجسور : أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن سعيد أبو عمر، يعرف بابن الجسور الأموي، مولى لهم محدث مكثر من أهل قرطبة يكنى أبا عمر ، وكناه ابن شنطير أبا عميرة ، حدث عنه أبو عمر بن عبد البر ، وأبو عبد الله الخولاني ، كان من أهل العلم ومتقدماً في الفهم يعقد الوثائق لمن قصده وفي المحافل لمن أنذره حافظاً للحديث والرأي عارفاً بأسماء الرجال ، توفي في بيته في بلاط مغيث بقرطبة سنة ٤٠١هـ . ينظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ٢٣/١-٢٤ .

[٣] أبي الوليد بن الفرضي : عبد الله بن مُحَمَّد بن يوسف المعروف بابن الفرضي ، أبو الوليد القاضي ، كان حافظاً متقناً عالماً ذا حظٍ من الأدب وافرٍ ، سمع بالأندلس من جماعة من العلماء . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٢٥٤ومابعدها .

[٤] أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري : قاضي بلنسه يكنى أبا عبد الرحمن ويلقب بحيدرة فقيه محدث من أهل بيت قضاء وعلم وجلالة، ومنازلهم ببلنسية من أعمال شرق الأندلس، ذكره أبو مُحَمَّد علي بن أحد وروى عنه الحديث وقال: هو أفضل قاض رأيته ديناً وعقلاً وتصاوناً مع حظه الوافر من العلم، مات قريباً من الأربع مائة. ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٢٦٢ ؛ ابن بشكوال ، الصلة ، ٢٦٢/١-٢٦٣ .

[٥] عبد الرحمن الهمذاني : عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني ، نسبة إلى بلد بالمغرب يقال له وهران ، من أهل الحديث والرواية ، رحل إلى العراق ، وسمع أبا بكر أحمد بن جعفر بن مالك بن حمدان القطيعي ، وأبا إسحاق البلخي ، وأبا بكر مُحَمَّد بن صالح الأبهري وغيرهم . .. ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٢٧٥ .

[٦] حمام بن أحمد : محدث قرطبي، يروى عن عبد الله بن مُحَمَّد التاجي. حدثنا عنه أبو مُحَمَّد على بن أحمد بن حمدون بن عمر القيسى أبو شاكر، قرطبي فقيه، له حظ من الأدب والشعر، يروى عن عبد الرحمن بن مروان القنازعى القرطبي، قرأنا عليه. ينظر: الحميدي،جذوة المقتبس،ص١٩٩؛ابن بشكوال، الصلة ، ٣١٧/١؛ الظبي ، بغية الملتمس ، ص٢٧٥

[٧] يونس بن عبد الله : يونس بن مُحَمَّد بن مغيث أبو الوليد، قاضي الجماعة بقرطبة، يعرف بابن الصفار، من أعيان أهل العلم وكان زاهداً، فاضلاً سمع أبا بكر مُحَمَّد بن معاوية القرشي، المعروف بابن الأحمر، ومُحَمَّد بن يبقي بن زرب، والعباس بن عمرو وغيرهم، روى عنه أبو عمر بن عبد النمري، وأبو مُحَمَّد بن حزم الحافظان، ، يميل إلى التحقيق في التصوف، وله فيه مصنفات. ومن كتبه: كتاب المنقطعين إلى الله عز وجل وكتاب المتهجدين وكتاب التسيب والتقريب وله أشعار في هذا المعنى وفي الرقائق والزهد . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٣٨٤-٣٨٥؛ الظبي ، بغية الملتمس ، ص٥١٢ .

القاضي[١] وغيرهم[٢] ، ونقل في كتابه طوق الحمامة أسماء كثير من أساتذتهِ من خلال إيرادهِ للأحاديث النبوية والآثار التي نقلها عنهم[٣] ، أما تلاميذه فكان من أبرزهم أبي عبد الله الحميدي[٤] وآخر من روى عنه بالأجازة أبي الحسن شريح بن مُحَمَّد[٥] .

مؤلفاتهِ .

صنفَ ابن حزم في أكثر من علم من علوم عصرهِ ، وقد عُرف بغزارة نتاجهِ العلمي فقد روى أبنه أبي رافع الفضل أنَّهُ ((اجتمع عنده بخط أبيهِ من تأليفهِ نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ...))[٦] ، كما ذكر الحموي[٧] جملة من مؤلفاته منها : الفصل بين أهل الآراء والنحل وكتاب الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد ، كتاب شرح حديث الموطأ ، الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها ، وكتاب منتقى الإجماع، كذلك كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال وكتاب الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام ، وكتاب المحلى في الفقه ، وكتاب المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار ، وكتاب حجة الوداع[٨] وغيرها كثير[٩] .

---

[١] لم أجد له ترجمة في كتب التراجم والطبقات .

[٢] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٨٥/١٨ ؛ عويس ، ابن حزم ، ص٦٦ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٨٦/١ ، ١٩٦ ، ٢٦٢ ،٢٧٢ ،٢٨٦ .

[٤] أبي عبد الله الحميدي : أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي نصر فتوح ابن عبد الله بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي ، نسبة لجده حميد الأندلسي، ؛ أصله من قرطبة من ربض الرصافة، وهو من أهل جزيرة ميورقة، حافظ مشهور، كان يحمل على الكتف للسماع، روى عن أبي مُحَمَّد علي بمن حزام الظاهري واختص به، وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته، ينظر : الظبي ، بغية الملتمس ، ١٢٣-١٢٤؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢٨٢/٤ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ١١٢/٢-١١٣.

[٥] أبي الحسن شريح بن مُحَمَّد : شريح بن مُحَمَّد بن أحمد بن شريح الرعيني الاشبيلي خطيب إشبيلية ، ولد فيها سنة ٤٥١هـ ،وهو محدث وأديب مشهور يروى عن أبيهِ مُحَمَّد ، وأبي عبد الله بن منظور وغيرهم ، سمع منه ابن حزم بن جهور وروى عنه الحديث على العامة وطلبة العلم ، توفي سنة ٥٣٧هـ، ، ينظر : الظبي ، بغية الملتمس ، ص٣١٨ ؛ المقري ، نفح الطيب ،١٦٢/٢ .

[٦] ابن بشكول، الصلة، ٤١٥/٢ ومابعدها؛ الحموي ، معجم الأدباء، ٢٣٨/١٢ومابعدها؛المقري،نفح الطيب، ٢/ ٨٣

[٧] معجم الأدباء ، ٢٥١/١٢ .

[٨] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٩٣/١٨ .

[٩] للمزيد حول مؤلفات ابن حزم الموجودة والمفقودة والمطبوعة والمخطوطة . ينظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ مقدمة المحقق ، ص٦-١٥ ؛ عويس ، ابن حزم ، ص٩٧-١٠٩ .

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلال كتاب طوق الحمامة

خصَ ابن حزم الأندلسي في كتابه طوق الحمامة المجتمع الأندلسي ، وذلك بحديثهِ في جميع الشواهد التي جاء بها ، والأمثلة التي أوردها ، وعلى الرغم من أنَّهُ كان مطلعاً على الكثير مما كُتب في بلاد المشرق الإسلامي ، لكنهُ أراد لكتابهِ أنّ يكون صورة صادقة للمجتمع الأندلسي في عصرهِ ، وقد كتبَ إلى صديقهِ الذي ألفَ لهُ كتابه هذا بطلب منهُ قائلاً : ((ودعني من أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرة الأخبار عنهم ، وما مذهبي أنّ أُنضي مطية سواي ، ولا أتحلى بحلي مستعار ...))[١] ، ولا شك أنَّهُ كان يعني بالأعراب مشاهير متيمي العرب وعشاقهم المشارقة الذين احتضنت البادية ورمال مفاوزها أجمل قصص حبهم وأشجاها ، وقد نقلت كتب التاريخ أخبارهم ونقصت آثارهم وأشعارهم[٢]، التي وصلت الأندلس وتداولها الأندلسيون ، وقد رأى ابن حزم أنَّ ما روي عن أولئك كثير ، وأنّ الحديث عنهم تكرار لا طائل منه ، وهو في كتابهِ إنما يقدم نسخته الأندلسية الفريدة ، والتي لم يسبقهُ إليها أحد على حد إطلاعي المتواضع .

ذكر ابن حزم في كتابه طوق الحمامة قصصاً عن عشاق أندلسيين شخصهم واسماهم بأسمائهم ، ولكنهُ استخدم أسلوب الكناية عن بعض من لم يشأ ذكر أسمائهم وتشخيصهم ، وقد أوضح أسباب ذلك بقولهِ : ((أما عورة لا نستجير كشفها ، وأما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً ، وبحسبي أنّ أسمي من لا ضرر من تسميتهِ ... أما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين ، وأما لرضى المخير عنهُ بظهور خبره ...))[٣]، نحنُ نجد في كتابهِ أحداثاً وشخصيات لم يذكرها غيره ولا نجدها إلا في كتابهِ ، وهذا مايزيد من قيمة الكتاب وأهميته ، وقد ألف ابن حزم كتابهُ هذا عندما كان مقيماً في شاطبه *Jativa*[٤] ، وأنَّ ذلك كان في حدود السنوات (٤١٧-٤٢٠هـ/١٠٢٦-١٠٢٩م) ، وهو في حدود الرابعة والثلاثين من عمره أو يزيد ، وقد صقلتهُ الأحداث وأنضجتهُ التجارب واتسعت معارفه وتنوعت في ضروب مختلفة مما ترك أثره في كتاباتهِ[٥].

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٨٧ .

[٢] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٣٦٦ ، ٤/١١؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٩/٥٤ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٨٧ .

[٤] شاطبة : مدينة جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، وهي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، وهي قريبة من جزيرة شقر، ويعمل بها كاغد لا نظير له بمعمور الأرض... ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٣٧

[٥] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ مقدمة المحقق ، ٣٨-٣٩ .

الفتنة البربرية وأثرها على الحياة الاجتماعية .

لاشك أنَّ الأحداث السياسية التي عصفت الأندلس بعد سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، قد تركت آثارها على المجتمع الأندلسي وأرهقته بتداعياتها المتوالية ، وقد أشار ابن حزم في أكثر من موضع عن أحداث وقعت لهُ ولغيره كانت مما جرتهُ أحداث الحرب وخطوبها ، ولعلَّ من أبرزها أجلاء كثير من الأسر الأندلسية عن مدينة قرطبة *Cordova* بعد دخول البربر إليها ، ومن تلك الأسر أسرة ابن حزم التي غادرت مساكنها في ربض قرطبة الشرقي والانتقال إلى الجانب الغربي ببلاط مغيث ، ولم ينتقلوا جميعاً بل بقيَ بعضهم في قرطبة لأسباب أوجبت عدم رحيلهم ، ويبدو أنَّ كثيراً من العائلات الأندلسية قد تفرق شملها ، وغادرت ديارها وأنَّ الفراق بين أفرادها طال لسنوات ، أو أنَّ الموت لم يأذن لبعضهم باللقاء مجدداً، فقد طحنت الحرب كثيراً من أبناء الشعب الأندلسي ، وكان القرطبيون الأوفر حظاً في ذلك ، إذ أنهم دفنوا عشرة آلاف من موتاهم في يوم واحد ، وذلك بعد دخول سليمان المستعين إلى مدينة قرطبة *Cordova* وهو دخوله الثاني سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[١] .

نقلَ ابن حزم قصة لأحد أصدقائهِ الذي كان مقيماً في مدينة المرية *Almeria*[٢]، أنَّهُ سافرَ إلى شاطبه *Jativa* [٣] لقضاء حاجة عنّتْ له ، ولكن الحرب بين مجاهد العامري[٤] وخيران الصقلبي حالت بينه وبين الرجوع إلى مدينتهِ ، ((فانقطعت الطرق بسبب هذهِ الحرب وتحوميت السبل وأحترس البحر بالأساطيل ...))[٥]، ولم يجد صاحبه سبيلاً الرجوع إلى جارتيهِ التي تركها في المرية *Almeria* ، فكان ذلك ذلك مما زاد في كربهِ وقلقهِ عليها ، وكم لهذا الرجل من نظير فكثر بين الأندلسيين حالت الحرب بينهم وبين الرجوع إلى ذويهم مدة من الزمن .

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٤٣/١ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٩٠/٣ .

[٢] المرية : بالأندلس، مدينة محدثة أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن مُحَمَّد سنة أربع وأربعين وثلثمائة، ريح وكان المجوس لما قدموا المرية وتطوفوا بساحل الأندلس والعدوة، فاتخذها العرب مرابطاً وابتنت بها محارس، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها، وهي اليوم أشهر مراسي الأندلس وأعمرها، ومن أجل أمصارها وأشهرها، وعليها سور حصين منيع بناه أمير المؤمنين . ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص٥٣٧ .

[٣] شاطبة : مدينة جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، وهي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، وهي قريبة من جزيرة شقر، ويعمل بها كاغد لا نظير له بمعمور الأرض... ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٣٧

[٤] مجاهد العامري : مجاهد بن عبد الله العامري ، أبو الجيش مولى عبد الرحمن الناصر ، من أهل الأدب والشجاعة ، ولما حدثت الفتنة وتغلبت العساكر على النواحي ، سيطرَ مجاهد على الجزائر التي تقع في شرق الأندلس ، وهي جزائر كثيرة الخيرات وكان ذلك سنة ٤٠٦هـ، وقيل سنة ٤٠٧هـ . ينظر : الظبي ، بغية الملتمس ، ص٤٧٢ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١٥٥/٣؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ٢١٧-٢١٨ .

[٥] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢١٦/١-٢١٧ .

كانت بعض الشخصيات السياسية التي ارتبطت بإطراف الصراع على السلطة قد تعرضت للمحنة والتنكيل ، وأنَّ بعض البيوتات الأندلسية المعروفة بولائها لجهة سياسية دون أخرى توالت عليها آثار التغيرات السياسية ومنهم أسرة ابن حزم نفسهُ التي نالها ما نالها على يد الخليفة هشام المؤيد ، الذي أُعيد إلى السلطة[١] بعد مقتل الخليفة مُحَمَّد المهدي مرة أخرى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، ويصور لنا ابن حزم[٢] تلك المحنة بقولهِ :((ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولتهِ وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار وأرزمت الفتنة وألقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا ...)) ، ولم يطلْ الوقت حتى توفي والد ابن حزم الوزير أحمد ، كما تعرض ابن حزم نفسه إلى الملاحقة والاعتقال بسبب الوشاية التي نقلت عنه إلى خيران الصقلبي ، بأنهُ (أي ابن حزم) يسعى للدعوة إلى الدولة الأموية ، وكان ذلك بسبب ولاء ابن حزم وإخلاصه للأمويين ، وذلك في حدود سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م[٣] .

أنَّ الروابط العائلية والاجتماعية التي ربطت بعض الشخصيات السياسية بعائلاتهم ومواليهم ، ربما كانت سبباً في هلاكهم بأيدي خصومهم السياسيين ، إذ كان خلف مولى يوسف بن قمقام[٤]، أحد القائمين مع هشام بن سليمان ، فلما أُسر هشام وقُتل وهرب الذين آزروه ، فرَ خلف في جملتهم ونجا ، لكنهُ لم يطقْ الصبر عن جارية كانت له بقرطبة ، فكر راجعاً لرؤيتها فظفرَ به الخليفة مُحَمَّد المهدي وأمر بصلبهِ[٥] . كذلك كان أبي بكر مُحَمَّد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث[٦] ، كان قد انتقل إلى محلة البربر للبحث عن جاريته التي كان يحبها ، وقد وقعت في الأسر وصارت في ملك احدهم ، وأنّهُ كاد يهلك بسبب ذلك[٧] ، وربما تكررت هذهِ المشاهد كثيراً في زمن الحرب والقتل والسبي الذي عم البلاد في مثل تلك الظروف السياسية التي ألقت بظلالها على المجتمع وأثرت فيهِ ، وقد أثرت تلك الفتنة في فقدان بعض الأسر الارستقراطية ثرواتها أو جزءاً منها بسبب ما وقع من نهب للأموال وتخريب للدور والأراضي الزراعية ، كما أنَّ الهجرة أجبرت الكثيرين على ترك مدنهم مما سبب تعطل إدارة ممتلكاتهم ورعاية مصالحهم ، وقد أدى ذلك إلى تغير مستويات معيشتهم وسيرة حياتهم التي ألفوها ، وهذا ما ترك أثره على حياتهم الاجتماعية أيضاً ، أما بالنسبة لمتوسطي الدخل والفقراء فأن الأمر كان أكثر صعوبة إذ

---

[١] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١٠٠/٣ .

[٢] طوق الحمامة ، ٢٥١/١ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٥١-٢٥٢ .

[٤] خلف مولى يوسف بن قمقام : لم أجد لهُ ترجمة في كتب التراجم والطبقات .

[٥] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٨٤/١ .

[٦] أبي بكر مُحَمَّد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث : لم أجد له ترجمة في كتب التراجم والطبقات .

[٧] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٨٤/١ .

زادت ظروف الحرب الأهلية من إفقارهم وسوء أحوالهم المعيشية بزيادة الضرائب وعموم الغلاء وانتشار المجاعة التي كانت أثراً من آثار الحصار وتدمير الأراضي ونقص الغلال[١]، ونستطيع أنّ نتصور كيف ساءت الأحوال من خلال رسالة بعث بها ابن حزم[٢] إلى احد أصدقائهِ يوضح فيها حالهِ وحال أمثالهِ ممن أرهقتهم الحرب وعضتهم الفتنة قائلاً : ((فأنت تعلم أنَّ ذهني متقلب وبالي مهصر بما نحن فيهِ من نبو الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ... وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد واقتطاع مكاسب الإباء والأجداد والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه والفكر في صيانة الأهل والولد...)) .

كان من الآثار الصحية التي خلفتها الفتنة البربرية على المجتمع الأندلسي ، انتشار مرض الطاعون سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م ، ونستطيع أنّ نتعرف على أسباب انتشار ذلك المرض من خلال معرفتنا لأوضاع الحرب وماتركتهُ من آثار مدمرة ، إذ انتشرت جثث الموتى وضحايا الحرب في قرطبة *Cordova* ، إذ لم يتسنى للناس دفن جثث موتاهم حين وفاتها وإنما قد يتأخر ذلك لأيام أو أسابيع تبعاً لما تقتضيهِ الظروف حتى يتم دفنها ، ا وانَّ بعض الجثث تلقى في مياه الأنهار وقنواتها ، وقد أدى ذلك إلى تلوثها وانتشار الأمراض ، وقد اخبر ابن حزم أنَّهُ فقد أخاه الأكبر أبا بكر في طاعون قرطبة ، ولم يكن قد تجاوز اثنتين وعشرين سنة من عمرهِ[٣] .

الأوضاع الاجتماعية للمرأة الأندلسية من خلال كتاب طوق الحمامة .

نستطيع أنّ نتعرف من خلال كتاب طوق الحمامة على بعض من جزئيات الحياة الاجتماعية للمرأة الأندلسية ، إذ أنَّ ابن حزم وبحكم انتمائهِ للطبقة الارستقراطية فهو في أغلب ما ينقله من أحوال النساء في عصرهِ ، إنما ينقل أوضاعهنَ في البيئة التي نشأ فيها ، وفي مثل هذهِ البيئة تستطيع المرأة أنَّ تنال حظاً من التعليم والثقافة ، وأنَّ ذلك يعتمد على مدى رغبتها واهتمامها للاستزادة من علوم عصرها ، ولقد نشأ ابن حزم في قصر كان فيهِ من الجواري من أخذ عنهنَّ تعليمه الأولي[٤]، ونحن نجد عند ابن بشكوال[٥] أسماء لنساء اشتهرنَّ بعلمهنَّ وثقافتهنَّ الواسعة ، وأنَّ بعضهنَّ من عملت في قصور الأمراء .

نقرأ عن بعض النساء اللواتي كان لهنَّ بعض الأعمال الخيرية التي يهدفنَّ من خلالها إلى مساعدة بعض فتيات الفقراء اللواتي يسعى أهلهنَّ إلى تزويجهنَّ ، وأنَّ تلك المساعدة لاتقتصرُ على الجانب المادي

---

[١] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨٦/٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

[٢] طوق الحمامة ، ٣٠٩/١ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٥٩/١ .

[٤] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٦٦/١ .

[٥] الصلة ، ٦٩١/٢ومابعدها .

بل تتعداه إلى جوانب معنوية تتعلق بكتم أسرار العشاق ، ومحاولة الجمع بينهم ومساعدتهم ، وقد حاول ابن حزم بوصفهِ كفيلسوف أنّ يجد لكل شيء علة ، وقد أرجع سبب ذلك إلى وازع نفسي ، ذلك لأن النساء العجائز قد يئسنَّ من أنفسهنَّ فأنصرف الإشفاق محضياً إلى غيرهنَ ولذلك ((أنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة...))[١] .

كانت نساء الطبقة المترفة ينعمنَ بما حفلت بهِ حياة القصور من رخاء ونعيم ، وقد يجتمعنَ في بعض الحفلات الباذخة التي تقام في مناسبات كالأعياد وحفلات الختان والزواج وغيرها ، ذلك وفي هذهِ الأجواء تقام الولائم وتجتمع النساء الأحرار ووصيفاتهنَ من الجواري ، ويصف ابن حزم[٢] واحدة من تلك المناسبات وهو يقول : ((فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له دور الرؤساء ، تجمعت فيهِ دخلتنا ودخلت أخي رحمهُ الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمتنا...)).

في تلك القصور ولكثرة عدد الجواري على اختلاف أعمارهنَ وأقدارهنَ كُنَّ يخضعنَّ لرقابة مشددة ، وكانت الجارية التي تتولى هذهِ المهمة تدعى ب(قيافة النساء) ، ويظهر أنها كانت تتولى إدارة أمورهنَّ والأشراف عليهنَّ ، وهي وظيفة تشبه إلى حد ما وظيفة القهرمانة[٣] ، التي عُرفت في بلاد المشرق ، ويصف ابن حزم[٤]، قيافة النساء في قصرهم بأنها كانت أنفذ من قيافة مدلج[٥] .

لم تكن الرقابة على النساء واحتجابهنَّ ، وماكان من حدود بينهنَّ وبين الرجال تمنع من وجود الاختلاط بينهم ، ونحن نجد فيما ينقلهُ ابن حزم عن ما كان يقع في القصور من قصص الحب نوعاً من التساهل في رفض القيود حتى أنَّ ابن حزم نفسهُ يبيت ثلاث ليال عند أحد النساء من معارفهِ كانت مشهورة بالخير والصلاح ولها جارية من قراباتها ، أعُجب بها ابن حزم كثيراً ، وأفاض في وصفها والحديث عن جمالها ورقتها ، وقد طال المقام بهِ ثلاث ليالٍ دون أنّ تحتجب عنهُ[٦] ، وفي القصص التي ينقلها هو عن من عاصرهم ، وأطلع على أحوالهم ما هو نظير لما ذكرهُ على أنَّ ذلك كان يُعد استثناءاً عما كان متعارفاً عليهِ من وجود حدود اجتماعية بين النساء والرجال[٧].

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٦٤/١-١٦٥ .

[٢] طوق الحمامة ، ٢٤٩/١ .

[٣] القهرمانة : (قهرم) القهرمان هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه قال مجداً وعزاً قهرماناً . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٩٦/١٢ .

[٤] طوق الحمامة ، ٢٥٠/١ .

[٥] مدلج : رجل من كنانة كان مشهوراً بالقيافة أي قص الأثر . ينظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٥٠/١ .

[٦] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٧٤/١ .

[٧] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٨٢/١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨- ١٨٩ .

كان بعض نساء الطبقة العامة يمارسنَّ أعمالاً توفر لهنَّ دخلاً يساعد على رفع مستوى المعيشة لهنَّ ولعائلاتهنَّ ، ويبدو أنَّ المرأة الأندلسية كان لها الحرية في العمل وممارسة بعض المهن التي تناسب طبيعتها وميولها وطبقتها الاجتماعية ، فكانَ منهنَّ الطبيبة والحجامة ،السرافة[١]، الدلالة ،الماشطة ،النائحة ،المغنية ،الكاهنة ، المعلمة ، المستخدمة والصنَّاع في المغزل والنسيج وما أشبه ، ومثل هؤلاء النسوة يدخلنَّ بيوت الأغنياء ولهنَّ علاقات بنساء الطبقة النبيلة ، ولهذا كان يُحذر من أنّ يصبحنَّ حلقة وصل بين العشاق[٢] .

معاملة الجواري .

اختلفت أوضاع الجواري باختلاف من يمتلكهنَّ فبعضهنَّ تمتعنَّ بشيء من الحرية والمعاملة الحسنة ، لكن البعض الآخر لم يكنَّ لهُنَّ حظ من ذلك إذ لقينَّ معاملة سيئة وأساليب قاسية في العقوبة ، منها التعذيب أو البيع وقد وصلَّ الأمر إلى حد القتل أحياناً ، كما فعل الحاجب المنصور بن أبي عامر بجارية أدخلت عليهِ وغنت شعراً قاله أحد شعراء قرطبة يتغزل فيهِ[٣] بصبح البشكنسية[٤] .

أزياء أندلسية .

يطلعنا ابن حزم[٥] في حديثه في باب السفير من كتابه على زي أندلسي كانت النساء الأندلسيات يرتدينهُ وهو مختص بذوات السن الكبيرة اللواتي يحذر من أنْ يكُنَّ ساعيات للوصل بين العشاق ، ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين ، إذ من الغريب أن تعمد النساء الكبيرات في السن إلى لبس اللون الأحمر ، وأنَّ يعرضن بهِ .

عادات العشاق .

في كتاب مثل طوق الحمامة الذي يتحدث عن الحب والمحبين ، لابد أنّ نرى إشارة إلى بعض ما كان متعارفاً ومتداولاً من عادات العشاق في الأندلس ، وهو أنّ يتهادى بعضهم خصل الشعر منجرة

---

[١] السرافة : في قراءة أخرى السواقة ، كأنها مأخوذة من العمل في السوق . ينظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/هامش رقم (١) ، ص١٤٢ .

[٢] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٤٢/١ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٤٧/١ .

[٤] صبح البشكنسية : جارية نافارية تحترف الغناء ، ولا تذكر أن كانت قد استرقت بالأسر في بعض المواقع، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول، ولكنها كانت تصفها بالجارية والحضية ، وصبح أو صبيحة هي ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصبح الباكر وهو الاسم النصراني الذي كانت تحمله صبح فيما يظهر .ينظر :ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ هامش رقم (٧) ، ص٩١-٩٢؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ٢٥٢/٢ .

[٥] طوق الحمامة ، ١٤٢/١ .

بالعنبر مرشوشة بماء الورد ، أو أنّ تكون الهدية مساويك بعد مضغها ، ولكن من المستغرب أنّ لا يشير ابن حزم إلى وجود الورد كنوع من أنواع الهدايا بين العشاق ونحن نلمح في كثير من الروايات أنَّهُ كان حاضراً حضوراً قوياً في الهدايا بين الأندلسيين[١] ، وتختلف طبيعة الحياة الاجتماعية في الأندلس كما في بلاد المشرق ، ولا سيما بين أهل الحضر والبادية وتبعاً لذلك قد تختلف بعض العادات والتقاليد ، فما يبدو مستهجناً في مجتمع المدينة الأندلسية قد يكون مرغوباً أو طبيعياً عند أهل البادية ، وهذا ما نستشفهُ من رواية ابن حزم التي يقول فيها أنَّ نساء الأعراب لا يقنعنَّ ولا يصدقنَّ عشق عاشق لُهنَّ حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهنَّ ، ثم يعلق ابن حزم[٢] على ذلك بالقول : ((ولا أدري ما معنى هذا إلا أنَّهُ يذكر عنهنَّ العفاف وأي عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى)) .

الحياة الشخصية لبعض أبناء الأسرة الأموية ورجال الدولة في الأندلس .

كثيراً ما تنقل كتب التاريخ أخباراً تخص جوانب عن الحياة السياسية والعسكرية للطبقة الحاكمة ، ويركز المؤرخون على هذهِ الجوانب لأهميتها في الوعي التاريخي ، فالحاكم هو رمز من رموز الأمة وكل تلك الجوانب هي جزء من تاريخها العام ، أما الحياة الخاصة لهُ فهي ملكهُ وملك أسرته ، وقد يكون فيها من تفاصيل وأسرار لا يطلع عليها إلا الخاصة والمقربون من الخدم والأقارب والأصدقاء ، ابن حزم وبحكم ما كان بين أسرتهِ والأسرة العامرية من علاقة وتقارب استطاع أنَّ يتعرف على بعض جزئيات تخص الجانب الشخصي والاجتماعي للأسرة الأموية والعامرية ، وهو بمثابة شاهد عيان فيما ينقل إذ يقول :((ولو لا أنَّ حقوقهم على المسلمين واجبة -أي بني أمية-، وإنما يجب أنَّ يذكر من أخبارهم ما فيهِ الحزم وأحياء الدين ، وإنما هو شيء كانوا ينفردون بهِ في قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغي الأخبار بهِ عنهم ،لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل...))[٣] .

كان لأمراء وخلفاء بني أمية الكثير من الزوجات والجواري ، إلا أنَّ بعضهن قد تميزنَ على غيرهنَّ ، وكانت لهُنَّ حظوة ومكانة ، حتى تناقلَ الناس أخبار حب سادتهنَّ لُهنَّ ، ومن ذلك حُب عبد الرحمن بن معاوية الملقب ب(الداخل) (١١٣-١٧٢هـ/٧٣١-٧٨٨م)[٤]،لجاريته

---

[١] ابن بسام ، الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الثاني ، ١٠٧ ، ١٣٢ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٥٨٣/٣ ، ٧/ ١١٤ .

[٢] طوق الحمامة ، ١٥٢/١ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٩٢/١

[٤] عبد الرحمن الداخل : هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي ، يكنى أبو المطرف ، وهو الأشهر في كنيته ، أمه أم ولد بربرية من سبي المغرب أسمها راح أو رداح ، نشأ يتيماً فكفله جده هشام بن عبد الملك ، وخصه برعايته وهو أول من ملك الأندلس من بني أمية سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م . ينظر : ابن القوطية ، تاريخ

دعجاء[١] ، أما الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢١). [٢] فقد أشار ابن حزم أنَّهُ أحب من جواريهِ ، ولكنهُ لم يشخص ولم يشر إلى واحدة بعينها ، وعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م) [٣] وشغفه بطروب[٤] ، ومُحَمَّد بن عبد الرحمن(٢٣٨- ٢٧٣هـ/ ٨٥٢-٨٨٦م) [٥] وأمره مع غزلان[٦]، والحكم المستنصر وحبه لصبح البشكنسية [١].

افتتاح ، ص٤٥ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٨٥ ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ٣٥/١ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٥/ ٢٤٤ .

[١] دعجاء : لم أجد ترجمة لها في كتب التراجم والطبقات ، علماً أن ابن حزم قد أوردها خطأ باسم دعجاء والأصح هو عجفاء . ينظر : الدرويش ، أعلام نساء ، ص٢١٩ .

[٢] الحكم بن هشام : المعروف بالربضي، أبو العاص ولي بعد أبيه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة. وكان شجاعاً باسلاً، أديباً مفتناً، خطيباً مفوهاً، وشاعراً مجوداً، تحذر صولاته، وتستندر أبياته.وهو الذي أوقع بأهل الربض فنسب إليه، وأمر بهدمه وتعطيله، وصير ذلك وصية فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم سلطان بالأندلس. فلم يعمر ولا اختطت فيه دار إلى آخر دولتهم، ثم بعدها إلى أن ملك الروم قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وأقام على ذلك نحواً من أربعمائة سنة وثلاثين سنة. ينظر : الضبي ، بغية الملتمس ، ص١٤؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٦٨/٢-٦٩؛ الحلة السيراء ، ٤٣/١-٤٤ .

[٣] عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أبو المطرف وهو الرابع من خلفاء بني أمية بالأندلس. بويع له يوم وفاة أبيه الحكم سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م، وكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام. وكان فصيحاً مفوهاً شاعراً، مع سعة العلم والحلم وقلة القبول للبغى والسعايات. وهو الذي أستكمل فخامة الملك بالأندلس، وكسا الخلافة أبهة الجلالة. وظهر في أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور... ينظر: ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ١١٣/١ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٨٠/٢-٨١ .

[٤] طروب : جارية عبد الرحمن الأوسط المحببة إليهِ ، وأكبر جواريه سلطاناً وحظوة عنده ، وكلف بها كلفاً شديداً، وهي التي بنى عليها الباب ببدر المال ، رغم أنها كانت أقلهنَّ وفاءً له ، وقد أنجبت منهُ أبناً سُمي عبد الله ، وسعت لأن تكون ولاية العهد له ، وبذلت جهوداً كبيرة من أجل ذلك ، لكنها فشلت في تحقيق مبتغاها ، فلجأت إلى تدبير اغتيال الأمير عبد الرحمن وأبنه مُحَمَّد ليخلو الجو لابنها ، واشترك في تدبير الاغتيال الفتى نصر كبير فتيان القصر . ينظر : مجهول ، تاريخ الاندلس ، ص١٨٤؛ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ١١٤/١ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ١/ ٣٤٩.

[٥] الأمير مُحَمَّد : هو الأمير مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ،كنيته أبو عبد الله وأمه تدعى بُهير ولد سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م ، تولى الإمارة الأموية بعد وفاة أبيهِ مباشرة ، إذ بويع وأُعلن أميراً في وقت كان أبوه مايزال مسجى على فراش الموت ، وأن أولو العقل كانوا يميلون إليه لرجاحة عقلهِ ، وحُسن سيرتهِ فبايعهُ الناس ونبذوا بيعة أخيهِ الأكبر عبد الله . توفي سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م . ينظر : ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ٥١/١-٥٣ ؛ الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص١٧ ؛ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ١١٩/١ .

[٦] غزلان : جارية كانت أول أمرها مع زرياب ، إذ لم تشر المصادر إلى أنها جاءت من المشرق أم أندلسية ، لزمت زرياب وتعلمت منه الغناء والضرب على العود حتى أصبحت مغنية بديعة فأحبها الأمير عبد الرحمن الأوسط واتخذها

ولعَ الحكام الأمويون في الأندلس بالنساء الشقراوات وبخاصة أبناء الناصر ، وبسبب ذلك غلبت عليهم الشقرة ((نزاعاً إلى أمهاتهم ، حتى صار ذلك فيهم خلقة ...)) ، كالناصر والحكم المستنصر الذين أدركهما الوزير أحمد بن حزم ، وكانا أشقرين أشهلين ، وهشام المؤيد ومُحَمَّد المهدي كانا أيضاً أشقرين ، أما سليمان الظافر (المستعين) فلم يكن كذلك بل كان أسود اللّمة وأسود اللحية ، وقد رآهم ابن حزم ودخل عليهم مراراً ، وقد تساءل في معرض حديثه عن سر إعجاب بنو مروان بالنساء الشقراوات ، وهل أنَّهُ أمرٌ ركب في تكوينهم أم أنَّهُ جاء لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجروا عليها؟ ، ولكنه يترك السؤال مفتوحاً دون ترجيح لإجابة معينة[٢]، يبدو أنَّ السبب لم يكن يتعلق برواية تخص ذلك أو تكوين في خلقتهم ، بقدر ما كان ذوقاً ألفهُ المراونيون ، لكثرة الجواري الاسبانيات والصقلبيات ذوات الأصول الآرية اللواتي اشتهرن بجمالهنَّ ، وقد أوردَ ابن حزم[٣]، رواية تتعلق بأميرة أموية لا يشير إلى أسمها بل يصفها بأنها من بنات الخلفاء ، وأنَّ أحمد بن مغيث[٤] قال أبياتاً تغزل فيها بتلك الأميرة ، وأنَّ ذلك كان سبباً في قتلهِ ، واستئصال أهل بيتهِ والتسجيل عليهم بأنَّ لا يستخدم منهم أحد أبداً حتى كان ذلك سبباً لهلاكهم ، وانقراض بيتهم فلم يبق منهم إلا الشريد الضال .

أخبار البيت العامري .

كثيراً ما ترددت أخبار الحاجب المنصور بن أبي عامر في روايات المؤرخين الأندلسيين ، تتحدث عن صفاتهِ وحروبهِ وآثاره ، لكن الرواية التي ينقلها ابن حزم تبين جانباً شخصياً من جوانب حياة المنصور تبدو أكثر طرافة وإثارة من غيرها ، إذ لا تتحدث الرواية عن علاقتهِ بنسائهِ أو جواريهِ فحسب ، بل تبين صفة غلبت عليهِ وأثرت في علاقاتهِ النسائية والاجتماعية عموماً ، فقد كان المنصور ملولاً محباً للتغيير في كل شيء ، ولا يأنس امرأة ولا صديق ولا حال إلا ملهُ وأنقلب حبه لهُ كرهاً ونفوراً ، وقد كان يرى الجارية فلا يصبر عنها ويحيق بهِ من الاغتمام والهم ما يكاد أنّ يأتي عليهِ ، حتى يملكها وانّ غلا ثمنها وصعبَ منالها ، فإذا صارت إليهِ زهدَ فيها ونفر منها حتى يبيعها باوكس الأثمان ، وقد اتلف في هذا الأمر مالاً كثيراً ، كما أبتلى بحبه جوارٍ كثيرات لم يفِ لهنَّ كان منهنَّ جاريته عفراء ، التي أحبتهُ كثيراً

زوجة لهُ فولدت لهُ عدداً من البنين والبنات . ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ١٢٦/٣ ، ٥٨١ وينظر أيضاً : الدرويش ، أعلام نساء ، ص٢٤٠ .

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٩١/١.

[٢] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ ١٣١ .

[٣] طوق الحمامة ، ١٤٧/١ .

[٤] أحمد بن مغيث : لم أجد لهُ ترجمة في كتب التراجم والطبقان . لكنهُ ينتمي إلى بيت آل مغيث الذي كان مع طارق بن زياد ، وفتح قرطبة فاستقرَ فيها وذاعت شهرته وتكونت أسرة آل المغيث وتفرعت في الأندلس وتبوءوا مناصب سياسية كثيرة . ينظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، ١٣٥/١ .

ولكنهُ باعها إلى أحد رجالهِ[١] ، وقد أخبر الحاجب ابن أبي عامر ابن حزم ((أنَّهُ يمل أسمهُ فضلاً عن غير ذلك ، وأما أخوانه فأنهُ تبدل بهم في عمره على قصره مراراً ، وكان لا يثبت على زي واحد كأبي براقش[٢]، حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتاك...))[٣] .

أما ولدهِ الحاجب عبد الملك المظفر فقد عُرفَ بحبهِ لامرأة تدعى واجد ولم تكن تلك المرأة من أسرة نبيلة ، بل كانت من بنات الجنانين ، ولكنهُ تزوجها لشدة حبه لها ، ثم صارت بعدهُ إلى أحد رؤساء البربر بعد سقوط الدولة العامرية ، كذلك كان للمظفر جارية تدعى ضنى العامرية ، ويبدو من كلام ابن حزم أنها كانت مغنية تنشد الشعر[٤] . وما أكثر الجواري المغنيات في قصور الأمراء والرؤساء .

شخصيات أندلسية

تكشف قصص الطوق عن أحوال بعض الشخصيات القرطبية المشهورة من رجال العلم والدين والسياسة ، فيما يتعلق بمعلومات على حياتهم الخاصة ، ونستطيع من خلالها معرفة ما كان سائداً من مظاهر اجتماعية مألوفة أو مرفوضة ، ومما يزيد في قيمة الكتاب أنَّ قصصهِ من واقع الحياة ينقلها شاهد عيان عاصر أصحابها والتقى بهم ، أو كان قريباً جداً من عصرهم ، فهو صورة حية ووثيقة صادقة عن المجتمع الأندلسي .

عشق الغلمان .

انتشرت ظاهرة عشق الغلمان في الأندلس ، وتكثر الروايات في المصادر الأندلسية حول هذا الموضوع ومن خلالها نستشف أنَّ الحديث عنها يبدو مألوفاً ، ولا يتحرج المؤرخ حين يتحدث عن شخصية تمثل رمزاً دينياً أو علمياً أو سياسياً في قولهِ من أنَّهُ كان يعشق فتى من الفتيان وقد نلمس في كلامهِ أنَّ الأمر يبدو معروفاً ومتداولاً ولا خجل فيهِ !!! .

يبدو أنَّ وجود العبيد الصقالبة الذين اشتهروا بجمالهم وكثرة عددهم في الأندلس حتى شكلوا طبقة اجتماعية كان لها وزنها[٥]، كان واحداً من أهم الأسباب التي أدت إلى تفشي هذهِ الظاهرة ، وانتشارها بشكل أصبحت فيهِ مألوفة ومعروفة[٦] .

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٢٠٠ .

[٢] أبي براقش : طائر طائر متلون في أكثر من لون ، ويتلون في اليوم الواحد ألواناً متعددة ، ويضرب بهِ المثل للمتلون . ينظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ،١/ هامش رقم (٢) ، ص٢٠٠ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٢٠٠ .

[٤] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٩٢ ، ٢٧٥ .

[٥] ابن الفقيه الهمذاني ، البلدان ، ص٦٢، ٣٣٠ .

[٦] دندش ، الأندلس في عهد المرابطين ، ص٣٤٠ .

نجد خبر يخص احد رجال عبد الملك المظفر وهو مقدم بن الأصفر[١] الذي عشق فتى يدعى عجيب، وكان مقدم هذا اضجر الفتى عجيب لكثرة ملاحقتهِ له ، فقد كان يطيل الجلوس أمام المسجد الذي كان يصلي فيهِ الفتى لأجل أنّ يراه ، وكان عجيب إذ ملَّ من ملاحقته ، قام إليهِ فيضربهُ ضرباً موجعاً فلا يزيده ذلك إلا تعلقاً بهِ وحباً لهُ[٢] .

كانت وفاة الكاتب للعالم النحوي أحمد بن كليب (ابن قزمان) [٣] ، بسبب عشقهِ لأسلم بن احمد بن سعيد وكان أجمل من رأتهُ العيون[٤] ،وكان كثير الزيارة لأبن قزمان وهو لا يعلم بما إلمَّ بهِ من عشقهِ الذي كان سبباً بمرضهِ وموتهِ[٥] ، كذلك مات أبو عبد الله مُحَمَّد بن يحيى الضبي بسبب عشقه لأحد لأحد الفتيان ، ولم يكن أمر عبد الله قد رأى هذا الفتى إلا مرة واحدة فغلب على عشقهِ وهام بهِ ، وكان يقول : ((لا فارقني حبه ، أو يوردني رمسي فكان ذلك ...))[٦] . كذلك عشقَ عبيد الله بن يحيى الجزيري[٧] فتى رضيَ معه بإهمال داره وإباحة حريمه ، والتعريض بأهلهِ طمعاً بالحصول على بغيتهِ من ذلك الفتى حتى تناقلت السن الناس أخباره وصار حديث مجالسهم[٨] .

أما قصص الجواري فأن بعضها أرتبط بشخصيات معروفة أو أبناء لعائلات وبيوتات أندلسية مشهورة ، إذ كان منذر بن سعيد[٩] ، صاحب الصلاة في جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر كانت لهُ جارية يحبها حباً شديداً ، فعرض عليها أنّ يعتقها ويتزوجها ، فقالت لهُ ساخرة بهِ أنَّي استبشع عِظم

---

[١] مقدم بن الأصفر : لم أجد لهُ ترجمة في كتب التراجم والطبقات .

[٢] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٥٦/١ .

[٣] أحمد بن كليب : أديب وشاعر مشهور بالشعر ، ولاسيما شعره في أسلم ، وكان قد أفرط في حبهِ حتى أداه ذلك إلى موتهِ . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٤٣/١ .

[٤] أسلم بن احمد : هو أسلم بن احمد بن سعيد بن قاضي الجماعة أسلم بن عبد العزيز ، شاعر جليل وأديب كبير عرف بجماله وحسن وجههِ ، ينحدر من بيت جليل القدر ، وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرياب . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٤٦ .

[٥] الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٤٦ .

[٦] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٦٣/١ .

[٧] عبيد الله بن يحيى الجزيري : لم أجد له ترجمة في كتب التراجم والطبقات .

[٨] ابن حزم، طوق الحمامة، ٢٧٩/١. نلاحظ أن ابن حزم عاب عليهِ عشقه للفتى بقدر ما لم يعب عليهِ تعريضهُ بنسائهِ وأهله .

[٩] منذر بن سعيد : هو منذر بن سعيد القاضي أبو الحكم المعروف بالبلوطي ، ينسب الى موضع في قرطبة يقال له فحص البلوط من أبرز فقهاء عصرهِ ، كثير الميل إلى المذهب الظاهري ، تولى قضاء الجماعة في قرطبة في حياة الحكم المستنصر بالله، وكان عالماً وفقيهاً ، وله مؤلفات في الفقه والقرآن والرد ، توفي سنة ٣٥٥هـ . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٣٤٨ ؛ الضبي ، بغية الملتمس ، ص٤٦٥ .

لحيتك ، فعمد إليها وحذقها ، ثم دعا بالشهود فأشهدهم على عتقها ، لكنهُ عندما خطبها لم ترضَ بهِ ، وكان أخوه حكم بن سعيد[١] ، قد حضرَ في جملة الشهود فبادر إلى خطبتها ، فرضيت بهِ وكان هذا كما كما يقول ابن حزم[٢] : ((عاراً فادحاً رضيَ به حكم لنفسهِ)) .

كذلك يبدو أنَّ هناك من الرجال من جُنَّ بسبب حبه لجارية كالذي حدثَ لمروان بن يحيى بن أحمد بن حدير[٣]، الذي أحبَ جارية أخيهِ فمنعهُ عنها وباعها لغيره ، وكان ذلك سبباً في ذهاب عقلهِ ، ثم أنَّهُ قُتلَ بضربة مخطئة يوم دخول البربر إلى قرطبة *Cordova* وانتهابهم لها[٤] ، كذلك أصيب يحيى بن مُحَمَّد بن عباس بن أبي عبدة[٥] ، ذلك أنَّ أمهُ باعت جارية له كان يحبها وأرادت تزويجه من أحدى بنات العامريين ، وقد كان يحيى هذا زميلاً لابن حزم في دراسة الفقه وقد رآه قبل أنّ يصيبهُ الجنون وهو يقول فيهِ : ((وكان يحيى لعمري حُلواً من الفتيان نبيلاً...))[٦] .

أورد ابن حزم شيئاً عن أخبار نساء أندلسيات اشتهرنَ بالوفاء والغيرة الشديدة ، وشاعت أخبارهنَ منهن : عاتكة زوجة أخيهِ أبي بكر الذي ماتَ في طاعون قرطبة *Cordova* ، فما انفكت منذ رحيله حزينة سقيمة ذابلة على الرغم من أنهما كانا في تعاتب وتعاضب طيلة ثمانية أعوام ، وهو عمر زواجهما بسبب غيرتها الشديدة وقد نقل أنها كانت تقول بعد موته : ((ما يقوي صبري ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاتهِ ، إلا سروري وتيقني أنَّهُ لا يضمهُ وامرأة مضجعٌ أبداً ، فقد أمنت هذا ... وأعظم أمالي اليوم اللحاق بهِ ...)) [٧]. أدرك ابن حزم ابنة زكريا المعروف بابن برطال[٨] ، ولم يذكر

---

[١] حكم بن سعيد : لم أجد لهُ ترجمة في كتب التراجم والطبقات .

[٢] طوق الحمامة ، ١٥٧/١ .

[٣] مروان بن يحيى بن أحمد بن حدير : لم أجد لهُ ترجمة في كتب التراجم والطبقات . ولكنهُ من أسرة بني حيدر وهي من الاسر الكبيرة في الاندلس ، وكان منهم موسى بن مُحَمَّد بن حدير الحاجب ، رئيس كان في أيام عبد الرحمن الناصر . ينظر : الظبي ، بغية الملتمس ، ص٤٥٥؛ المقري ، نفح الطيب ، ١٧٦/٣ .

[٤] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٧١/١-١٧٢ .

[٥] يحيى بن مُحَمَّد بن عباس بن أبي عبدة : لم أجد له ترجمة في كتب التراجم والطبقات . ولكنهُ من أسرة بني عبدة أحدى الأسر الأندلسية العريقة ، وقد كان عيسى بن احمد بن أبي عبدة وزيراً في أيام حكم الأمير عبد الله ، وتبوأ رجال هذهِ الأسرة مناصب رفيعة في الدولة . ينظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، ١٢٠/١-١٢١ .

[٦] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ٢٤٣/١ .

[٧] طوق الحمامة ، ٢٦٠/١ .

[٨] ابن برطال : زكريا بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال ، كان فقيهاً نبيلاً في الفتيا ، وأخته بريهة أم المنصور بن أبي عامر، تولى مهمة القضاء في بطليوس وباجه خلال حقبة حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، توفي سنة ٣٥٩هـ . ينظر : ابن الفرضي ، تاريخ ، ١٧٨/١ ؛ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ٢٧٥/١ .

اسمها وقد مات زوجها ، وبلغ من أسفها عليهِ أنّ باتت معهُ في دثار واحد ليلة مات وجعلتهُ آخر العهد بهِ ، ويوصله ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها[١] .

المبحث الثالث

ملامح حضارية أندلسية في كتاب طوق الحمامة .

بلغت مدينة قرطبة *Cordova* أوج عظمتها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر من مكتبات ومدارس ومنشآت عمرانية أخرى منافسة جميع الحواضر الإسلامية المعاصرة لها[٢]، ولطالما تحدثت المصادر المصادر الأندلسية عن بهاء قرطبة *Cordova* ، وعظمة منشآتها واتصال عمرانها وكثرة مساجدها وحماماتها حتى قيل أنَّ عدد مساجد وحمامات قرطبة في مدة الحاجب المنصور بن أبي عامر بلغت ألف وستمائة مسجد ، وتسعمائة حمام[٣] ، أما عدد دور قرطبة كلها ((ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ، وعدد أبوابها سبعة ، وعدد أبراجها المنتظمة بدور المسور من جوانبها الأربعة مائتان واثنان وسبعة أبراج ، وعدد ارباضها المحيطة من جميع نواحيها عشرون ربضاً ، ويدور بجميع هذهِ الأرباض الخندق المشهور ... وهو المحيط بجميع ارباض قرطبة ومساكنها...))[٤] .

نستطيع أنَّ نتعرف على بعض معالم مدينة قرطبة *Cordova* من خلال الإشارات التي وردت عند ابن حزم إلى مناطق وأحياء وأبواب ومساجد وشوارع وقصور كانت موجودة في المدينة ، وقد أكدت وجودها مصادر أخرى ، وأنَّ أشارات ابن حزم تُعد أصدق وثيقة على وجود تلك المعالم حتى زمنهِ ، كما أنَّهُ يُقدم معلومات قيمة عن الأثر المدمر لفتنة البربر على الجانب العمراني للمدينة ، وكيف تحولت عِقبَ الفتنة وانعدام الأمن فيها وتحولها إلى مدينة أشباح خالية من اللصوص والقتلة[٥] .

تردد لأكثر من مرة ذكر الجانب الشرقي والجانب الغربي من مدينة قرطبة *Cordova* في أحاديث ابن حزم ، فما الذي كان يعنيهِ بهذا التقسيم ؟ منذُ عصر الإمارات بدأت مدينة قرطبة بالتوسع ، والخروج من الإطار الضيق الذي عاشت فيهِ منذُ العصر الروماني ، وقد اخذ النمو العمراني يمتد ليس فقط على الجانب الآخر للجسر الذي يمتد على نهر الوادي الكبير، بل تعداه إلى أنشاء أحياء جديدة تقع بين الشاطئ الأيمن للنهر والطريق القديم الذي كان ينطلق من بوابة عبد الجبار ، ويؤدي إلى مدينة

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٨٨/١ .

[٢] هيلنبراند ، قرطبة ، ١٨٩/٢ ؛ بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، مجلد الثاني ، القسم الأول ، ٣٠٤ ومابعدها .

[٣] المقري ، نفح الطيب ، ٥٤٠/١ .

[٤] ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٧ .

[٥] ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٠٦-١٠٧ .

القليعة[١]، وقد أطلق على هذا الامتداد الجانبي للرقعة العمرانية الذي كان يسمى حتى شرق المدينة العتيقة اسم الجانب الشرقي[٢]، وكان لهُ سبعة ارباض وهي : ربض شبلار، ربض فرن برّيل ، ربض البرج ، ربض منية عبد الله، ربض منية المغيرة، ربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة[٣].

أما الجانب الغربي فيُعتبر الامتداد الجانبي الأكثر اتساعاً وكثافة سكانية ، إذ كان في الطريق الموصل إلى مدينة الزهراء[٤] ، وكان فيهِ تسعة ارباض : ربض حوانيت الريحان ،ربض الرقّاقين، ربض مسجد الكهف، ربض بلاط مغيث، ربض مسجد الشّفاء، ربض حمّم الإلبيري ، ربض مسجد المسرور، ربض مسجد الرّوضة وربض السّجن القديم[٥] .

ويتضح مما سبق أنَّ الجانب الغربي هو الجزء القديم من المدينة ، وأنَّ ربض بلاط مغيث هو أقدم ربض فيهِ ، ونستطيع أنّ نستشف ذلك من بعض الروايات التي أكدت أنَّ بلاط مغيث هو القصر الذي وهبهُ موسى بن نصير[٦] لمغيث الرومي[٧] ، الذي بعثهُ الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) ، ٧١٥م) ، لموسى ليستعجلهُ بالذهاب لقرطبة ، ولكن موسى كانَ ماضياً في إتمام مابدأ بهِ من فتوحات فاستمهلهُ في الرجوع معهُ[٨] .

---

[١] لم أجد تعريفاً لها في كتب البلدان .

[٢] بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، المجلد الثاني ، القسم الأول ، ٣١٢/١ .

[٣] المقري ، نفح الطيب / ٤٦٦/١ .

[٤] الزهراء : مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس اختطها عبد الرحمن الناصر وهو يومئذ سلطان تلك البلاد في سنة ٣٢٥هـ، وعملها متنزهاً له وأنفق في عمارتها من الأموال ما تجاوز فيه عن حد الإسراف وجلب إليها الرخام من أقطار البلاد وأهدى إليه ملوك بلاده من آلائها مالا يقدر قدره وكان الناصر هذا قد قسم جباية بلاده أثلاثاً ثلث لجنده وثلث لبيت ماله وثلث لنفقة الزهراء وعمارتها وذكر بعضهم أن مبلغ النفقة عليها من الدراهم القاسمية منسوبة إلى عامل دار ضربها وكانت فضة خالصة بالكيل القرطبي . الحموي ، معجم البلدان ، ٤١٠/٢ .

[٥] المقري ، نفح الطيب ، ٤٦٥/١-٤٦٦ .

[٦] موسى بن نصير : يكنى أبو عبد الرحمن صاحب فتح الأندلس ، وكان أمير أفريقيا والمغرب ووالياها في سنة ٧٩هـ ، وكانت الولاة في ذلك الوقت تعين من قبلهِ، يقال أنَّهُ مولى لخم وهو من التابعين توفي سنة ٩٧هـ وقيل سنة ٩٩هـ ينظر :الحميدي ، جذوة المقتبس ، رقم ٧٩٣ ، ص٣٣٨ ؛ الضبي ، بغية الملتمس ، ص٤٥٧ .

[٧] مغيث الرومي : هو عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الرومي المتوفى سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤م ، كان أحد قواد طارق بن زياد فتح قرطبة ، وقد بعثاه طارق وموسى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبره بالانتصارات التي حققاها ، فعاد مغيثاً فوراً ليخبر موسى وطارقاً بالعودة الى دمشق . ينظر : النباهي ، المرقبة العليا ، ص٥٤ .

[٨] المقري ، نفح الطيب ، ٤٦٦/١ . توهم ليفي بروفنسال حين ذكر أن المقري يقول أنَّ عدد ارباض الجانب الغربي سبعة أبواب فقط في حين أنَّ المقري يذكر أنها تسعة . ينظر : بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، المجلد الثاني ، القسم الأول ، ص٣١٤ .

وفي الجانب الغربي من قرطبة *Cordova* ، كانت تقع المدينة الملكية التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر المعروفة بمدينة الزهراء ، وفيها قصور الخلفاء ووزرائهم وحاشيتهم ودواوين الدولة ومخازن الأسلحة والأموال وغير ذلك[١] ، وقد أهملت هذهِ المدينة وخبا صيتها عندما بنا المنصور بن أبي عامر مدينة الزهراء التي أصبحت مقراً لهُ ولابنائهِ ، وانتقلت إليها رسوم الملك وأبهة السلطان ، إذ كان بناؤها في الجانب الشرقي من قرطبة سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م ، وقد تحدث ابن عذاري[٢] عن عظمة بنائها وعمرانها وإنها كانت ((بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونسق فيها كل اقتدار معجز ... وحشد إليها الصناع والفعلة وجلب إليها آلالات الجليلة ... وتوسع في اختطاطها ... وبالغ في رفع أسوارها وثابر على تسوية إنجادها وأغوارها فاتسعت هذهِ المدينة في المدة القريبة ...)) ، وفي هذهِ المدينة ولد ابن حزم في قصر أسرتهِ ، وقد كتبَ يصف ذلك المكان الذي كان قريباً من قصر المنصور بن أبي عامر قائلاً : ((أنَّهُ كان في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفي هذا الدرب كانت دارهُ – أي المنصور بن أبي عامر- رحمه الله ملاصقة لنا ...))[٣] .

يرد ذكر ربضين من ارباض قرطبة *Cordova* في كتاب طوق الحمامة هما : ربض قرطبة ، وقد ورد ذكره في المصادر الأندلسية مرتبطاً ببعض الأحداث التاريخية وهو يقع في جنوب قرطبة بعدوة النهر حيال رأس القنطرة ، ويبدو أنَّ ربض شقندة هو الاسم الآخر لربض قرطبة أو أنَّ منطقة شقندة هي أهم وأقدم مناطق ربض قرطبة وأكبرها حتى أنَّ أسمهُ كان يطلق على اسم ربض قرطبة أحياناً من باب تسمية الكل بالجزء[٤] ، وكانت منطقة شقندة قد تحولت بعد فشل ثورة أهل الربض في عهد الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) [٥] إلى منطقة مهجورة إذ أمر الحكم بأخلائها ونفي أهلها وحرثها[٦] .

---

[١] ابن غالب ، فرحة النفس ، ص٣١ ومابعدها ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤/ ٣٥٧ .

[٢] البيان المغرب ، ٢/٢٧٥ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/١٩٩ .

[٤] المقري ، نفح الطيب ، ٢/٦٣٩ ، ٣/١٩ .

[٥] الحكم الربضي : الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية تولى الحكم بعد وفاة ابيهِ سنة ١٨٠هـ، وله اثنتان وعشرون سنة، يكنى أبا العاص، أمه أم ولد اسمها زخرف؛ وكان طاغياً مسرفاً، وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم، وهدم ديارهم ومساجدهم؛ وكان الربض محلة متصلة بقصره، فاتهمهم في بعض أمره، ففعل بهم ذلك، فسمى الحكم الربضى لذلك؛ واتصلت ولايته إلى أن مات في آخر ذي الحجة سنة ٢٠٦هـ . ينظر : الظبي ، بغية الملتمس ، ص١٤؛ ابن الابار، الحلة السيراء ، ١/ ٤٣ومابعدها؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٤-١٨.

[٦] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢/٧٧ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٥-١٦ .

أما ربض الزاهرة فيبدو أنَّهُ قد استُحدث بسبب التوسع الذي طرأ على مدينة الزاهرة ، وما أُقيم حول قصبتها من دور الخاصة والعامة من وزراء وكتاب وقواد وحُجاب الذين ((اقتنوا بأكنافها كبار الدولة وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المقيدة والمنازه المشيدة وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الإرفاق وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بإطرافها ...))[١] . هكذا اتسقت مدينة قرطبة وتناما عمرانها إذ وصلت في أيام ابن حزم ، وقبل ثورة البربر إلى أوج عظمتها[٢]

نجد إشارات لبعض ملامح قصر بني حزم الذي كان يمثل أحد قصور الطبقة النبيلة ، إذ كانت تلك القصور تمثل جزءاً من معالم مدينة الزهراء الملكية ، وفي وصف ابن حزم ما يرسم صورة أجمالية لذلك القصر الذي بني وسط بستان أحاطت بهِ أنواع الأشجار المثمرة والزهور التي تشكلت وتناسقت أنواعها وهندسة أماكنها بما يليق ومكانة أصحابها[٣] ، توسط ذلك البستان قصبة يطلع منها على جميع إنحاء قرطبة وفحوصها ، وقد تعددت أبواب القصر واتسعت مساحتهِ فهناك قسم خاص بالنساء وآخر للرجال ، وكانت النساء المحتجبات وراء أبواب تلك القصور يستطعنَّ مراقبة ما يحدث خارجها من خلال الشراجيب أو المشربيات[٤]، التي كانت جزءاً من طراز البيوت والقصور الأندلسية[٥]، الذي يبدو أنها أنها أثر من آثار العمارة المشرقية التي انتقلت إلى الأندلس[٦] .

أشارَ ابن حزم إلى اثنين من أبواب قرطبة *Cordova* هما : باب العطارين وباب عامر ، وينقل لنا المقري[٧] نصاً ثميناً عن ابن بشكوال يعدد فيهِ أبواب مدينة قرطبة *Cordova* بأسمائها ، وتحديد مواقعها مواقعها وهي سبعة أبواب : ((باب القنطرة إلى جهة القبلة (الجنوب) ويعرف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر، باب الحديد ويعرف بباب سرقسطة، باب ابن عبد الجبّار وهو باب طليطلة، باب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرّصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طرّكونة إلى أربونة مارّة في الأرض الكبيرة، ثم باب طلبيرة وهو أيضاً باب ليون، ثم باب عامر القرشي وقدّامه المقبرة المنسوبة إليه، ثم باب الجوز، ويعرف بباب بطليوس، ثم باب العطّارين،

---

[١] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢/٢٧٥-٢٧٦ .

[٢] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٢٥١ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/٢٥٠ ؛ دكي ، الحديقة الأندلسية ، ٢/١٤١٥ .

[٤] الشراجيب : الشبابيك أو الطاقات ، ويكون الشباك مشرجباً إذا كان من خشب بهيئة مربعات . ينظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ هامش رقم (١) ، ص٢٥٠ .

[٥] أشار الفتح بن خاقان في كتابهِ القلائد إلى قصر في إشبيلية كان يعرف بقصر الشراجيب ، ويبدو أنَّ القصر تميز بكثرة الشراجيب فيهِ وروعة تصاميمها . ينظر : ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص١١٢-١١٣ .

[٦] بلياس : الأبنية الاسبانية ، ص١٢٦-١٢٨ .

[٧] نفح الطيب ، ١/٤٦٥ .

وهو باب إشبيلية)) ، يقدم ابن حزم معلومة مهمة عن باب العطارين إذ كان هذا الموضع مجتمع النساء في وقتهِ ، ولكنهُ لا يقدم أي تفصيل حول هذا الموضوع ، وربما كان هناك متنزه أو سوق تجتمع فيهِ النساء حتى أصبحنَ بمرور الوقت مكاناً خاصاً بهنَ ، ومكاناً يلتقي فيهِ العشاق[١] .

أما باب عامر فقد ذكرهُ ابن حزم في سياق ذكره للمقبرة التي كانت تقابله ، والتي تقع على طريق الطلبة إلى منطقة رصافة قرطبة[٢] التي تُعد من أجمل وأقدم مناطق المدينة ، وقد أشارَ ابن حزم إلى مقبرة أخرى كانت تسمى مقبرة الربض ، ويبدو أنَّ أطلاق اسم الربض مجرداً على المقبرة من دون اسم مضاف لها كان يعني ربض مدينة الزهراء ، إذ كانت هذهِ المقبرة تقع خلف النهر ، وتضم قبور بني مروان وقد بُنيت عليها حدائق عرفت برباض بني مروان ، كما أشار إلى مقبرة أخرى هي مقبرة قريش التي تقع في قرطبة ، وكان يقع إلى الشرق منها مسجد لم يشر إلى أسمه ، ويبدو من خلال أشارات ابن حزم أنَّ هذهِ المقبرة كانت تقع في المدينة القديمة[٣] . كذلك كان في قرطبة *Cordova* مقابر أخرى منها : مقبرة أم سلمة ، ابن عباس ، الربض العتيقة والجديدة ، روضة الصلحاء ، متعة ، مؤصرة و مقبرة حلال وغيرها وعادتاً ما كانت تقام المقابر خارج المدينة أو خارج أسوارها بجوار أحد أبوابها[٤] .

أما ما يخص المساجد فقد ذكر ابن حزم ثلاث مساجد من مساجد قرطبة *Cordova* التي كانت تضم – حسب رواية ابن حيان– في مدة الحاجب المنصور بن أبي عامر ألف وستمائة مسجد[٥] ، ، ولكن رواية البكري[٦] أكدت أنَّ عددها أربعمائة وواحد وتسعون مسجداً ، ويمكننا أن نوفق بين الروايتين بأن رواية ابن حيان ذكر فيها عدد مساجد قرطبة *Cordova* وأقاليمها ونواحيها وقراها ، أما رواية البكري فأنه ذكر فيها عدد مساجد حاضرة قرطبة *Cordova* وحدها [٧] .

يرد ذكر مسجد المسرور في سياق حديث ابن حزم عن احد الشخصيات التي اشتهرت بعشق الغلمان ، في إحدى رواياتهِ ويرتبط بأحد ارباض قرطبة في الجانب الغربي ، الذي أخذ اسمهُ من اسم المسجد وهو ربض مسجد المسرور ، ربما كان لكل ربض أكثر من مسجد ولكن يبقى هناك مسجد

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٢١/١ .

[٢] رصافة قرطبة : وهي مدينة أنشاها عبد الرحمن الداخل بعد أنّ ملك الأندلس تشبيهاً لها برصافة جدهِ هشام بن عبد الملك بدمشق التي كان يحنُ إليها . ينظر : الحموي ، معجم البلدان ، ٤٨/٣ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤٦٧/١ .

[٣] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٢١/١ ، ١٥٥ .

[٤] دندش ، من مظاهر الحياة الاجتماعية ، ص١٠٦ .

[٥] المقري ، نفح الطيب (برواية ابن حيان) ، ٥٤٠/١ .

[٦] المسالك والممالك ، ٣٨٩/٢ . علماً أنَّ هنالك مصادر ذكرت المساجد في مدينة قرطبة بإعداد متفاوته ومختلفة . ينظر : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٧ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٥٤٠/١ .

[٧] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٥٦/١ ، ٢٨٦ .

يحمل صفة رسمية يختص بالربض الذي يقع فيهِ ، ومما ذكرهُ ابن حزم مسجد العمري وهو يقع في الجانب الغربي من قرطبة *Cordova* ، وقد تلقى فيهِ ابن حزم جزءاً من دروسهِ في علم الحديث سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م[١] .

أما مسجد قرطبة فقد تردد ذكرهُ عند ابن حزم أكثر من مرة في سياق حديثهِ عن بعض الأحداث ، وقد تلقى ابن حزم بعض دروسه في علم الحديث في هذا المسجد[٢]، نجد وصفاً مستفيضاً لمسجد قرطبة في المصادر الأندلسية[٣]، وقد نقل البكري[٤] نصاً مفصلاً في وصفهِ وقال : ((إنَّ المنصور بن بن أبي عامر زاد في عرض المسجد بأمر من هشام المؤيد ثمانين ذراعاً فتم العرض مائتين وثلاثين ذراعاً ...)) ، وقد زادت مساحة المسجدوأدخلت عليهِ الكثير من التعديلات بتوالي عهود الأمراء والخلفاء الأمويين[٥].

ذكرَ في كتاب طوق الحمامة لمحلة تدعى (محلة البربر) ، ويبدو أنَّ هذهِ المنطقة كانت تضم أغلبية من البربر ، وأنها أصبحت بعد سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، مكاناً خطراً بالنسبة للأندلسيين الذين ينحدرون من أصول غير بربرية ، وربما استحدثت هذهِ المحلة بعد الأحداث السياسية التي ألمت بالأندلس أثناء ثورة البربر وأنهم اجتمعوا في ذلك الجزء من قرطبة *Cordova* مع الخليفة سليمان الظافر (المستعين) بعد اختيارهم لهُ في مواجهة الخليفة المهدي الذي أساء معاملتهم[٦] .

عانت مدينة قرطبة *Cordova* بعد سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ، من آثار الحرب المدمرة التي قضت على اغلب معالم المدينة ومنشآتها العمرانية ، ونستطيع من خلال بعض الإشارات التي أوردها ابن حزم معرفة بعض الجزئيات عن نهب وخراب قرطبة ، بعد سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م[٧]، إذ كانت مدينة الزهراء التي تقع شرق قرطبة قد دمرت تماماً على يد إتباع مُحَمَّد المهدي ، وقد صبت العامة الجام غضبها عليها باعتبارها مقر الحكم العامري ، فهدمت قصورها وأنتهب ما فيها من أموال وذخائر ، وقد أباح المهدي ((لإتباعهِ تخريبها وسوغهم ما افتعلوه من أمرها وأنقاض قصورها ودورها ، فبلغوا من تدميرها في أيام قلائل ما لم يقدر أنَّهُ يُبلغ في مدة طويلة وعفا رسمها فأصبحت بلقعاً...))[٨] .

---

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١٥٦/١

[٢] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ ١٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ .

[٣] ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٨ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢٢٩/٢ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٥٤٥/١ .

[٤] المسالك والممالك ، ٣٨٨/٢ .

[٥] ابن غالب ، فرحة النفس ، ص٢٨ .

[٦] ابن حزم ، فرحة الأنفس ، ٢٨٤/١ .

[٧] ابن حزم ، التلخيص ، ص٦-١٠ .

[٨] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٦٤/٣ .

غادرَ ابن حزم وعائلتهِ مدينة الزهراء بعد ثلاثة أيام من قيام مُحَمَّد المهدي ، وانتقلوا إلى دورهم في بلاط مغيث في الجانب الغربي من قرطبة ، بحثاً عن مكان أقل خطراً ، لكنَّ الأوضاع في قرطبة كانت تسير من سيء إلى أسوء إذ تدهورت الأحوال أكثر بعد ثورة البربر وأجلت كثير من العائلات عن قرطبة بأكملها وكان ابن حزم قد غادر المدينة نهائياً أول المحرم سنة أربع وأربعمائة [١] ، إلى مدينة المرية *Almeria* ، لانعدام الأمن واعتداء البربر على السكان حتى طلب بعض أهل مساجد الجانب الشرقي بقرطبة أيام تغلب البربر عليها من فقهاء المالكيين تعجيل الغمة لهم قبل وقتها خوف القتل ، ذلك أنَّ متلصلصة البربر كانوا يقفون لهم في الظلام على طرق المسجد فإذا رأوهم قتلوهم ، أو اختطفوهم أو نهبوا ما عندهم من مال[٢] ، وقد نقل ابن الخطيب[٣] نصاً مهماً يصف فيهِ ابن حزم ما آلت أحوال مدينة قرطبة بعد عودتهِ إليها ربما كان ذلك في عودتهِ الثانية سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م ، وقد وقف على أطلال منازل أسرتهِ في حومة بلاط مغيث من الارباض الغربية ومنازل البربر المستباحة ((وقد محت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى ، فصارت صحاري مجذية بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنُس وآكاماً مشوهة بعد الحُسن وخرائب مفزعة بعد الأمن ... مكامن للوحوش ومخابى للصوص ...)) ، هكذا أضحت مدينة قرطبة بعد انّ كانت عاصمة الغرب الإسلامي وأم مدائنها .

[١] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ١/ ٢٥٢ .

[٢] ابن حزم ، الأحكام ، ٣/٣١٣ .

[٣] أعمال الأعلام ، ص١٠٦ .

الخاتمة

أظهرت الدراسة جملة من النتائج المهمة تتمثل بما يلي :-

١- أهمية كتاب طوق الحمامة في دراسة الجوانب الاجتماعية من تاريخ الأندلس .

٢- تركَ الواقع السياسي المتأزم أثرهُ على الحياة الاجتماعية في الأندلس ، وغيرَ كثيراً من معالم النسيج الاجتماعي المتماسك لقرون طويلة مما أحدث تغييراً كبيراً على الحياة الاجتماعية .

٣- بينت الدراسة جوانب مهمة عن الحياة الشخصية لبعض الشخصيات التاريخية الأندلسية ، ولعلَّ بعض تلك الشخصيات لم تذكرها مصادر أندلسية أخرى ، أو أنَّ تلك المصادر أهملت الجانب الشخصي من حياتها .

٤- بينت الدراسة محاولة ابن حزم التركيز على خصوصية الأندلس ، ومحاولة إبراز الشخصية الأندلسية المستقلة عن المشرق حتى في موضوع كالحب الذي يُعد شعوراً إنسانياً يشترك فيهِ جميع الناس .

٥- أظهرت الدراسة وجود بعض معالم مدينة قرطبة التي أشارت لها بعض المصادر الأندلسية الأخرى وأكدت بقاء تلك المعالم حتى زمن ابن حزم .

٦- بينت الدراسة حجم الدمار والسلب والنهب الذي تعرضت لهُ مدينة قرطبة وما آلت إليهِ أحوالها بسبب الفتنة البربرية .

قائمة المصادر والمراجع العربية

المصادر العربية

ابن الأبار ، أبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي ،(ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) .

١-___الحلة السيراء ، حققه وضبط حواشيه ، حسين مؤنس ، ط٢، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥

ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم الشيباني ، (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .

٢- الكامل في التاريخ ، راجعه وحققه مُحَمَّد يوسف الدقاق ، ط٤ ، درا الكتب العلمية ، منشورات مُحَمَّد علي بيضون ، ٢٠٠٣ .

ابن بسام ، أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ، (ت٥٤٢هـ /١١٤٧م) .

٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٩٧ .

ابن بشكوال ، أبي القاسم خلف بن عبد الملك ، (ت٥٧٨هـ / ١١٨٣م) .

٤-كتاب الصلة ، القسم الأول والثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨ .

البكري ، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) .

٥-كتاب المسالك والممالك ، حققه وقدم لها أدريان فان و اندري فيري ، دار الغرب الإسلامي ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، ١٩٩٢ .

ابن حزم ، أبي مُحَمَّد علي بن أحمد بن سعيد ، (ت٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) .

٦- الأحكام في أصول الأحكام ،أشراف أحمد شاكر ، مطبعة العاصمة ، القاهرة ، د.ن .

٧- ____ ، التلخيص لوجوه التخليص ، حققه وعلق عليه عبد الحق التركماني ، مركز البحوث الإسلامية ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٣ .

٨- ____ ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق إ.ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، ١٩٤٨ .

٩- طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ط٢، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٧ .

الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

١٠- معجم الأدباء ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ .

١١- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٧ .

الحميدي ، أبي مُحَمَّد عبدالله بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الازدي ، (ت٤٨٨هـ /١٠٩٥م) .

١٢- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .

الحميري ، مُحَمَّد بن عبد المنعم ، (ت حوالي ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) .

١٣- الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط٢ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٤ .

١٤- ابن حوقل ، أبي القاسم مُحَمَّد بن حوقل البغدادي ، (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م) .

١٥- صورة الأرض ، دار ومكتبة الحياة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٢ .

ابن حيان القرطبي ، أبي مروان حيان بن خلف ،(٤٦٩هـ/١٠٧٦م) .

١٦- المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، نشر ب .شالميتا بالتعاون لضبطهِ وتحقيقه مع ف.كورنيطي و م . صبح وغيرهما ، المعهد الأسباني العربي للثقافة العربية ،كلية الآداب ، مدريد ، ١٩٧٩ .

ابن خاقان ، أبي نصر الفتح بن مُحَمَّد بن عبيد الله القيسي الأشبيلي ، (ت٥٢٩هـ/١١٣٤م)

١٧- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق ، حسين يوسف طربوش ، ط١ ، مكتبة المنارة ، عمان ، ١٩٨٩ .

ابن الخطيب ،لسان الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن الخطيب السلماني ، (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)

١٨- تاريخ اسبانيا النصرانية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن مُحَمَّد ، (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) .

١٩- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس ، خليل شحادة ، راجعهُ سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، ٢٠٠٠ .

ابن خلكان ، شمس الدين أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد ، (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م).

٢٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، د.ت.

الذهبي ، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد ، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

٢١- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٩ .

٢٢- ـــــــ ،سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٣ .

ابن سعيد ، أبي الحسن على بن موسى ، (ت٦٨٥هـ /١٢٨٦م) .

٢٣- المغرب في حُلى المغرب، حققه وعلق عليهِ شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف ، القاهرة، د.ت .

ابن الشباط ، مُحَمَّد بن علي بن الشباط المصري التوزري ، (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .

٢٤- وصف الأندلس وصقلية وهو قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط في شرح الهدى الفخر المحمدي ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الرابع عشر ، مدريد ، ١٩٦٧ .

ابن صاعد ، أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي ، (ت٤٦٢هـ/١٠٦٩م) .

٢٥- طبقات الأمم ، تقديم مُحَمَّد بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٧ .

الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ، (ت٥٩٩هـ /١٢٠٢م) .

٢٦- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .

ابن عذاري ، أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد المراكشي ، (ت بعد سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م) .

٢٧- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢وج٣، تحقيق ج.س كولان وإ ليفي بروفنسال ، ط٢ . بيروت ، دار الثقافة . ١٩٨٠م .

ابن غالب ، مُحَمَّد بن أيوب الغرناطي ، (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

٢٨- قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، تحقيق لطفي عبد البديع ،فصل من مجلة معهد المخطوطات ، المجلد٢، مصر ، ١٩٥٦م .

أبي الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن مُحَمَّد بن عمر ، (ت ٧٣٢هـ/١٣١٣م)

٢٩- المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر . د.ت .

ابن الفرضي ، أبي الوليد عبد الله بن مُحَمَّد بن يوسف بن نصير الأزدي ، (٤٠٣هـ/١٠١٢م) .

٣٠- تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط١ ، الناشرون دار الكتاب العربي ، القاهرة و دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ .

ابن الفقيه الهمذاني، أبو بكر احمد بن علي، (ت حدود القرن الثالث الهجري)،

٣١- كتاب البلدان ، تحقيق يوسف الهادي ، الناشر عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٩٦ .

ابن قتيبة الدنيوري ، أبي مُحَمَّد عبد الله بن مسلم ، (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) .

٣٢- الشعر والشعراء ، تحقيق احمد مُحَمَّد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .

القلقشندي ، أبي العباس أحمد بن علي ، (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م) .

٣٣- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، طبع المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٥ .

ابن القوطية ، أبي بكر مُحَمَّد بن عمر القرطبي ، (ت ٣٦٧هـ /٩٧٧م) .

٣٤- تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق ، إبراهيم الابياري ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،١٩٨٩م .

ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .

٣٥- البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والأعلان ، ١٩٨٨

مجهول ، مؤلف ، (كان حياً في القرن الرابع الهجري / العشر الميلادي)

٣٦- تاريخ عبد الرحمن الناصر ، قدم له عدنان مُحَمَّد آل طعمة ، دار سعد الدين ، دمشق ، ١٩٩٢ .

مجهول ، مؤلف أندلسي، (ت بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م) .

٣٧- تاريخ الأندلس ، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٩ .

المراكشي ، عبد الواحد ، (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م) .

٣٨- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم وتحقيق مُحَمَّد زينهم مُحَمَّد عرب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

المقري ، أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني ، (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) .

٣٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٨.

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم الافريقي المصري ، (ت٧١١هـ /١٣١١م)

٤٠- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

النباهي ، أبي الحسن بن الفقيه أبي مُحَمَّد بن عبدالله بن الحسين ،(ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م) .

٤١- تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، ط٥، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، (٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

٤٢- نهاية الأرب في فنون الأدب ، المؤسسة المصرية العامة ، مطابع كوستاتسوماس وشركاؤه ، القاهرة ، د.ت .

المراجع العربية

إبراهيم ، زكريا

٤٣- ابن حزم الأندلسي الفكر الظاهري الموسوعي ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د.ت .

توفيق ، عمر إبراهيم

٤٤- صورة المجتمع في القرن الخامس الهجري (سياسياً واجتماعياً وثقافياً) الطبعة الأولى ، دار عيداء ، ٢٠١١ .

حتاملة ، مُحَمَّد عبدة

٤٥- الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة ، طباعة مطابع الدستور التجارية ، عمان ، ٢٠٠٠ .

الحميداوي ، صباح خابط

٤٦- الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لأعيان الأندلس في عهد الإمارة والخلافة (١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م) ، الطبعة الأولى ، دار ومكتبة عدنان ، ٢٠١٤ .

الدرويش ، جاسم ياسين

٤٧- أعلام نساء الأندلس ، دار الكتب العلمية ، منشورات مُحَمَّد علي بيضون ، بيروت ، ٢٠١٧ .

دندش ، عصمت عبد اللطيف

٤٨- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ٥١٠-٥٤٦هـ/ ١١١٦-١١٥١م تاريخ سياسي وحضاري ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨ .

دكي ، جيمس

٤٩ - الحديقة الأندلسية . دراسة في مدلولاتها الرمزية . بحث ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، تحرير سلمى الجيوسي الخضري ، الطبعة الثانية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ .

دويدار ، حسين يوسف

٥٠- المجتمع الندلسي في العصر الأموي ١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣٠م ، الطبعة الأولى ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

أبو زهرة ، مُحَمَّد

٥١- تاريخ المذاهب الإسلامية في السيلسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر ، القاهرة ، د.ت

سالم ، السيد عبد العزيز

٥٢- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، ط٢ ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٦ .

السامرائي وآخرون

٥٣- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط١، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي بيروت ، ٢٠١٤

العبادي ، أحمد مختار

٥٤- الصقالبة في اسبانيا، مدريد، ١٩٥٣م .

عنان ، مُحَمَّد عبد الله

٥٥- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ،ط٢ ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

عويس ، عبد الحليم

٥٦- ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري ، الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠١٠

الكعاك ، عثمان

٥٧- موجز التاريخ العام للجزائر ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ٢٠٠٣ .

مشكور ، مُحَمَّد جواد

٥٨- موسوعة الفرق الإسلامية ، ، مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٥ .

مؤنس ، حسين

٥٩- فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ٧١١-٧٥٦م ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ودار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٥٩

٦٠ -_____ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٤ .

هيلنبراد ، اوبرت

٦١- قرطبة (زينة الدنيا) القروسطية مركزاً ثقافياً عالمياً ، بحث ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، تحرير سلمى الجيوسي الخضري ، الطبعة الثانية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ .

المراجع الأجنبية المترجمة

بالنثيا ، أنجل جونثالث

٦٢- تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت .

بروفنسال ، إ ليفي

٦٣- تاريخ اسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١-١٠٣١م) ، ترجمة عبد الرؤوف البمبي وآخرون ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ٢٠٠٠ .

البحوث المنشورة

دندش ، عصمت

٦٤- من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس (طقوس الجنائز) ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد التاسع عشر ، جامعة مُحَمَّد الخامس ، الرباط ، ١٩٩٤ .